

أحمد ماهر محفوظ (القبر)

والمعهد الدراسات الإنسانية بالجامعة
مكتبة في الآداب - جامعة القاهرة

رحلات

السعودية

إبسان

قبرص

اليونان

إيطاليا

فرنسا

رومانيا

مكتبة المتحف الجامعية
٢٠٠٢



المعهد العالي للدراسات والبحوث
بجامعة الكويت

دبلوم معهود الدراسات والبحوث
ماجستير في الآداب - جامعة الكويت

رحلات

السعودية

لبنان

قبرص

اليونان

إيطاليا

فرنسا

رومانيا

مكتبة الثقافة الجامعية
ن ٢٥٢٢٦ السنة ٢٠٠٢

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م

الاهداء

إلى من يريدون سبيلا إلى الجنة فيسلكون لها سبيلا إلى العلم .

أحمد بن محمد بن أبي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

يسرني أن أقدم الى المكتبة العربية محاولة أدبية لي عن « رحلات » قمت بها ، ويستطيع القارئ أن يصفقها بالسرعة - كالزمن - أو التنويع أو الجدبة أو المرح أو أنها دينية أو علمية فهي مزاج من هذا كله ، ولكنني أسعيرج الى كل ما ينسب إلى الدين والعلم في المقام الأول - وتشتمل على ست مقالات : الأولى : « لبيك عمرة » وهو لفظ النية حين يقوم المعتمر برحلته إلى البلد الأمين .. مكة المكرمة ثم المدينة المنورة .

الثانية : « حول البصر الأبيض المتوسط » وتحدث فيه عن موانئ في لبنان وقبرص واليونان وإيطاليا وفرنسا .

الثالثة : « يوميات في الموانئ » وهي أكثر الموانئ التي تحدث عنها في المقالة الثانية بانطباعات تختلف عن سابقتها .

الرابعة : « في مهبط الوحي » إلى المدينة ومكة مرة ثانية .

الخامسة : « أيام في رومانيا » نقضها في العاصمة والشواطئ والمرافعات الرومانية .

السادسة : « لبيك حجاً » عود على بدء لأداء فريضة الحج .

والله أدعوا أن يكون سعادتي إلى هذه البلاد بهدأت تعرف إلى الله بحقي .
ومزيد من العمق والاتساع .

والله ولي الدين آمنوا .

أحمد طاهر محمد السقري

المقالة الاولى

لبيك عمرة

مكة المكرمة

«وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد
أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا» (الفصح ٢٤)

نظم نادى الجمارك لأول مرة رحلة لزيارة الأماكن المقدسة بمكة والمدينة
في ٢٢ من رمضان سنة ١٣٩٠هـ (٢٣ نوفمبر سنة ١٩٧٠) وقد كان المؤلف أن
يكون وقت الزيارة شهر رجب ، ولهذا يطلق عليها الزيارة الرجبية ، وإن
لم يثبت أنه عليه الصلاة والسلام - اعتمر في رجب . (١)

وقد يرجع تخصيص هذا الشهر إلى أن عبد الله بن الزبير لما فرغ من بناء
الكعبة خرج ماشيا معتمرا ومعه أهل مكة في ٢٧ من رجب ، غير أنه وردت
أحاديث في أفضلية العمرة في شهر رمضان كما يقول رسول الله - ﷺ -
«عمرة في رمضان تعدل حجة» ، (٢) أي في الثواب غير أنها لا تغني عن الحج
وإن تعددت ، إذ الحج ركن من أركان الإسلام يؤديه من استطاع إليه .

سبيلا لا يرجو سمعة أو شهرة بالغنى والنقى وقال تعالى (وأتوا الحج والعمرة لله ^(١)).

وتفيد كلمة (العمرة) الزيارة بوجه عام . وهى بالمعنى الدينى زيارة بيت الله الحرام ، ووقتها أى يوم من أيام السنة ، وقد اعتمر رسول الله ﷺ ثلاثا إحداهن فى شوال واثنتين فى ذى القعدة ^(٢) .

وفى مساء يوم السفر (نحو الساعة ١١) لبسنا ملابس الاحرام وهى إزار ورداء أيضمان، الازار يستتر به من السرة إلى الركبتين، والرداء يغطى الظهر والكتف الأيسر، إذ يبقى الأيمن مغرى وهو ما يسمى بالاضطجاع ، وذلك بعد التلطف بنية العمرة «لبيك بعمرة» والتطهير . وواضح، أن هذه الملابس تمثل التجرد من متاع الدنيا وكأنما توحى بالتخفف من أوزار النفس ^(٣) ، فقد سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم - عن ثياب الاحرام فقال - صلى الله عليه وسلم - لا تلبسوا القميص ولا السراويلات ولا العمام ولا البرانس إلا أن يكون أحد ليست له نعلان فيلبس الخفين وليقطع

(١) البقرة ١٩٦

(٢) الموطأ ص ٢٢٦ ويذكر ابن القيم أن عمره صلى الله عليه وسلم كانت كلها فى ذى القعدة، وإنما وقع الاشتباه أنه خرج من مكة فى شوال للقاء العدو وفرغ من عدوه وقسم غنائمهم ودخل مكة ليلا معتمرا من الجعرانة وخرج منها ليلا فخفيت عمرته هذه على كثير من الناس . زاد المواد ١٨٤/١

(٣) وقد يكون الجانب الصحى مراعى فى عدم لبس الخيط إذ لا وضع الحشرات وبويضاتها ولهذا أيضا تقلم الاظفار قبل الاحرام .

أسفل من الكعبين ، ولا تلبسوا شيئا مسه زعفران ولا الورس ، ولا تنقب المرأة المحرمة ولا تلبس القفازين . (١) وكذلك قالت عائشة - رضي الله عنها - لا تلبس المحرمة ثوبا بورس أو زعفران (٢) .

وقد كان الإحرام في مطار القاهرة حيث من غير المتيسر هبوط الطائرة في «رابع» (٣) وهي ميعات أهل شمال إفريقيا والشام ، والميعات هو مكان إحرام الحجاج والمعتمرين ويختلف باختلاف الشعوب جغرافيا ، فميعات أهل المدينة مثلا ذو الحليفة ، ولأهل نجد قرن المنازل ، ومكة : التنعيم ، والعراق : ذات عرق (بكسر العين) ، واليمن : بلعام ولا يجوز للمحرم أن ينوي بعد الميعات وإذا لم يتيسر له المرور به ينوي من المكان المحاذي له .

وفي الطائرة كنا نلحى بصوت غير مجهود (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك) أما النساء فيستمعن أنفسهن حتى هبطت الطائرة (جدة) حيث وجدنا قيسيرا من رجال جرك مطار جدة كان له أثر طيب في نفوسنا .

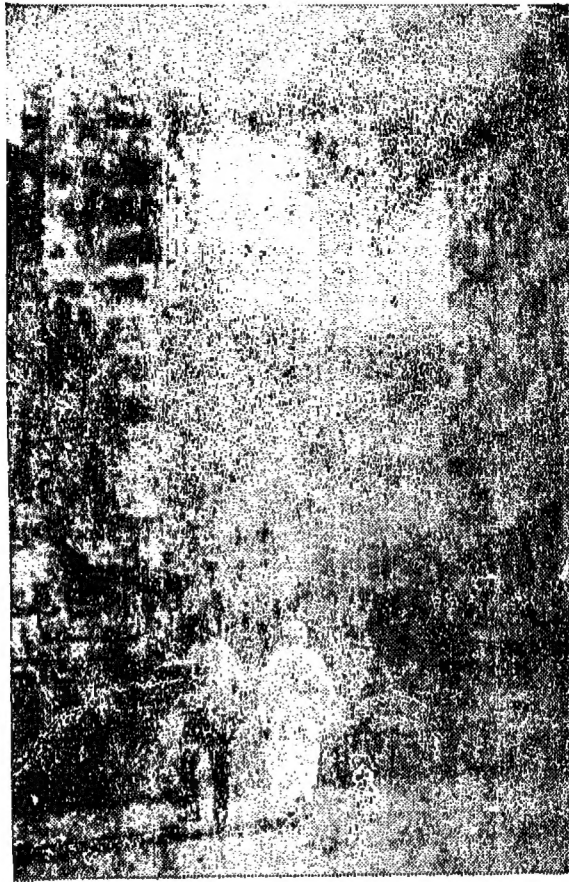
ومن المطار استقبائنا عربات من قبل أحد المطوفين أوصلتنا إلى مكة في طريق الشبيكة وهي أحد أبواب مكة الثلاثة (الآخرين باب المعلى وباب

(١) صحيح البخارى ١٩/٣

(٢) الورس : نبت أصفر طيب الريح يصنع به .

(٣) مدينة صغيرة على ساحل البحر الأحمر ، وكانت تسمى على عهد رسول الله - ﷺ - الجحفة أو هي قرية منها .

المنفلة) حيث بتنا في بيت المطوف لقاء ٥٠ ريالاً لكل منا ، وكان متساهلاً
إذ لم يحدد مدة المبيت ولعله كان يعرف أن مدة الرحلة محددة من قبل فبتنا
لديه بمكة خمس ليال .
وما أكثر أماكن المبيت في مكة ، هناك بيوت المطوفين ، الفنادق ،
المسجد الحرام نفسه ، فالناس فيه في رحاب الله لاجئون إليه بشرطة أن يرعوا
حرمة المسجد ويحافظوا على نظافته . وما أن وضعنا حقائبنا في بيت المطوف
حتى اتجه بعضهم إلى المسجد الحرام يريد أن يشبع النظر والروح منه برغم
ما تعاني من إرهاق السفر ، فإذا هو يتوسط مكة .



في الطريق إلى المسجد الحرام

ووصف الكعبة : والكعبة وسط المسجد ولم تكن كذلك حتى عهد الوليد بن
عبد الملك (١) ، ولها باب بين الحجر الأسود والركن العراقي ارتفاعه من
الأرض نحو مترين ومفتاح قفل، وهى مبنية بالحجارة الزرقاء الصلبة ارتفاعها
١٥ مترا، طول الضلع الذى فيه الباب اثني عشر مترا وكذلك الضلع المقابل له،
أما ضلعها الذى فيه الميزاب فعشرة أمتار وعشرة سنتيمترات وكذلك
ما يقابله .

والميزاب أعلى البناء فى منتصف الحائط الشمالى الغربى لتصرف المياه من
السطح ، وهو من عمل الحجاج وقد تجدد غير مرة ، والموجود فى وقتنا من
ذهب منذ عهد السلطان عبد العزيز .

أما الحجر الأسود أو الأسود كما يسميه بعضهم يسمى ربما بالظلال من
قبلات الحجيج - فيبضى الشكل عجوف مخفوف بإطار فضى يحفظ تماسكه ،
لونه بنى محروق لامع ، به نقط حمراء ، وتعاريج من أثر لحام القطع التى
تكسرت منه ، قطره نحو ٣٠ سنتيمترا ... ها هى وجوه المعتمرين إنكاد
لأنهم داخل الحجر ، قد وضعت الجباه ، وألصقت الشفاه لا يريد أحد أن
ينصرف لولا أن يدفعهم عامل مختص تعرفه بجاهكت أصفر يعطى الفرصة
لكثير عدد من الطائفين ، والسيدات خاصة . إنهم يشمون منه رائحة طيبة .
يذكرونا هذا بما تلقاه الكعبة من عناية ، إذ تغسل باحتفال يحضره شريف
مكة فيصلب ركعهم ، وتغسل بماء زمزم ثم بماء الورد ثم تضمخ بالطر
المسك ... والبخور .

(١) فى منزل الوحى ص ٤٧١ .

ولا يملك الحاكم المخلص أن يدخرونها في كل ما يهوى سبل الراحة للحجاج
هذا البيت والمعتمرين ، فحسب البيت شرفاً أن يقسم به الله في سورة مكية ،
قال تعالى «والبيت المعمور والسقف المرفوع ..» (١)

وفي المسجد الحرام مصاحف كثيرة وقف للمسجد للاطلاع عليها في
خشوع إذ لا تجد القارئ الذي يطرب بصوته فتأخذ الناس نشوة تبعدهم
عن الوتر الديني كما نلاحظ في بعض مساجد غيره ، كما قد تتعدد فيه حلقات
الدرس بلغات مختلفة عربية أو إيرانية مثلاً ، وقد رأيت في وقت واحد من
يلقى الدرس بالأوردية - فيما أظن بصوت هادئ وابتسامة راضية ولا أدرى
إذا كانت اللغة العربية في ذاتها لغة خطابة دون الأخيرة أم أن تلك مجرد صدفة
وملاحظة عابرة .

وقد لغت نظري بالمسجد غلام لا يتجاوز الحادية عشرة من عمره يؤم
شيوخاً في الصلاة يقرأ القرآن بصوت قوى جميل فوددت لو التقطت آلة تصوير
هذا المنظر لولا أن السلطات المختصة تمنع إدخال آلات التصوير ولست أدرى
لماذا ؟ فاككتيت بالجلوس أستمع إلى الغلام وهو يقرأ آيات بعد الفاتحة
استغرقت نحو ربع ساعة فتذكرت منظر آخر في القاهرة بمسجد «الكحينا»
رجلاً يؤم القوم في صلاة القيام «التراويح» فإذا هو يقرأ سورة «عم يسألون»
في كل ركعة آية وأثنين مثل «الذي هم فيه يختلفون» منفصلة عما قبلها بطريقة

مخلّة ، فقلت في نفسي هذا الغلام إمام للرجال بما يحفظ من القرآن وخسب
ويبرز بعض الأئمة بما يتقن من الآراء مما يدل على فهم واستيعاب لمعاني
القرآن .

البلد الأمين : ومكة بلد آمن نزل فيها قرآن ، وأقسم الله بها (لا أقدم بهذا البلد
وأنت حل بهذا البلد)^(١) وينقل أبو شريح عن النبي - ﷺ - أن مكة حرمها الله ولم
يحرمها الناس فلا يحل لأمرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعصدها
بها شجرة وإن أحد ترخص لقتال رسول الله - ﷺ - فقولوا له : إن الله
أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن لي ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم
كحرمتها بالأنفس .^(٢)

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال النبي - ﷺ - يوم افتتح مكة
« لا هجرة ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا » فإن هذا بلد حرمه الله
يوم خلق السموات والأرض ، وهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة وأنه
لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمه
الله إلى يوم القيامة ، لا يعصده شوكة ، ولا ينفر صيده ، ولا ينقطع لقطته إلا من
عرفها ، ولا يختلي خلاها ، قال العباس . يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقبورهم
وليبيوتهم قال : إلا الإذخر .^(٣)

(١) البلد ١ ، ٢

(٢) صحيح البخارى ١٨/٣ ، مسلم ١١٠/٤ تبين يعصده : يقطع

(٣) صحيح البخارى ١٨/٣ وما بعدها - الخلا (بالفتح) : النبات الرطب

الرقيق ، يختلي : يقطع ، الإذخر : نبت طيب الرائحة تسقف به فوق الخشب .

وفي أهل مكة وداعة وحسن خلق وأمانة ، زبهم جلاليب بيضاء كأنما
تعبهم عما في نفوسهم من نقاء ولقبيهم وهيج الظهيرة .

فما فيها مفواضة . وليس فيها من وسائل الترف واللهو ما تعرفه القاهرة
وبيروت وغيرها من العواظم والمدن الكبرى ، ومع ذلك ففيها متعة المتع
الروحية «المسجد الحرام» الذي يؤمه آلاف المسلمين من كل فج عميق .
وقد رأينا المسن الذي حمل على «نقالة» خشبية ليطفأ به حول الكعبة ورأينا
الاحدب الذي تظن أن يرهقة الطواف ، والأعرج الذي يسعى بين الصفا
والمروة في سعادة وكلهم يرجو من الله عودا حميدا .

وقد رأينا من استغنى عن المطوف بقراءة كتاب يشرح مراحل الطواف
والسعى بين الصفا والمروة سبع مرات أثناء الطواف والسعى .

وشهدنا في العيد المسجد ممتلئا بالرجال والنساء والأطفال في أحسن زينة
ولقد لفت نظر المقيمين بالسعودية كثرة أفواج المصريين ككرة لم نعهد منذ
سنوات فكيف لو أتيج لكل الراغبين في الزيارة فقد وجدنا بالقاهرة من يزيد
من تذكرة الطائرة بعد أن حجزت المقاعد جميعا إلى مائة جنيه أى ضعف ثمنها
المحدد . ومع ذلك فلا يجد من يبيعها إياه .

المدينة المنورة

والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله ، والذين
آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم
الأنفال ٧٤

برغم أن مناسك العمرة بمكة إلا أن المعتمر أو الحاج لا يملك وقد هبط
الحجاز إلا أن يشد الرحا إلى مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
بالمدينة المنورة حيث هاجر الرسول واستقبله أهل المدينة أحسن استقبال
وسموا لذلك الأنعام وظل هذا الاسم عالما عليهم يردده التاريخ بالحب والتقدير
هذا المسجد أحد ثلاثة مساجد بحث على السفر إليها رسول الله - ﷺ -
في قوله : « لا تشدوا الرحا إلا إلى ثلاثة مساجد ، مسجدى هذا ، والمسجد
الحرام والمسجد الأقصى ^(١) » ، وقد قال ﷺ : صلاة في مسجدى هذا أفضل
من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ^(٢) .

استأجرنا سيارة تسع سبعة ركاب غير السائق حيث تقاضى السائق عشرين
ريالا من كل راكب ، وسارت السيارة على بركة الله تقطع طريقا تحفه الجبال
من كل جانب ... مسافة نحو ٤٥٠ كم في سبع ساعات تقريبا فأبى زاد من
الإيمان كان يحمله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في نفسه جعله صابرا
على الخروج من مكة إلى المدينة في ١٢ ربيع الأول بعد أربع عشرة سنة من
البعث ومعه أبو بكر ومولى أبي بكر (عاصم بن فهيرة) وعبد الله بن أرقط

(١) صحيح مسلم ١٠٣/٤

(٢) صحيح مسلم ١٢٤/٤

الدبلي - ولم يكن مسالماً (١) - مع التأثير الشديد للخروج من مكة إذ يقول رسول الله عن مكة (والله إنك لأحب أرض الله إلى وإنك لأحب أرض الله إلى الله ولولا أن قومك أخرجونى ماخرجت منك) .

والمدينة شمال مكة وقد كنا نقف بين الحين والآخر في أما كن مشهورة (عسفان ، رابع ، مستورة ، بدر) للراحة أو للصلاة ، حتى باغنا المدينة قبيل الفجر بساعة تقريبا ، حيث توجهنا على الفور إلى مراكز بعثات الجمهورية العربية المتحدة (التكنية) بجمار مدرسة طيبة النافوية في طريق باب العنبرية . وطيبة اسم ثان للمدينة المنورة وكذلك طابة (١) ، وقد كان اسمها قبل هجرة الرسول إليها « يثرب » فغير هذا الاسم لكيلا يوحى إلى النفس جو الجاهلية الأولى فيما نرى .

وما أن وضعنا حقائبنا حتى تطلعت نفوسنا إلى أن نستنشق الهواء كله إن أمكن من خارج مراكز بعثات الجمهورية ، وكيف لا ونحن نحس أن ربك رسول الله - ﷺ - ينفذ غير الزمن الطويل .. أكثر من ألف سنة ليصلنا بحياة الإسلام في وضائها واشراقها .

ذهبنا إلى مسجد رسول الله - ﷺ - وبه عدة أبواب .. باب الرحمة ، باب جبريل ، باب عثمان بن عفان غير أننا دخلنا من باب السلام حيث قبر الرسول بعد أمطار قليلة ، وأخذت أقترب والأمل يزيد في أن أقترب من رسالة محمد النبي المناضل الشجاع : تذكرت هذه الصفة وقد تساقطت الدموع من عيني

(١) سيرة النبي ٢/٨ وما بعدها ، مروج الذهب ص ٤٩٧ ،

(٢) صحيح مسلم ١٢١/٤

كيف خاض رسول الله حرباً ضروساً مع أعداء الحق ، وكيف أودى في سبيل الله من رؤوس الشرك .. أبى لهب ، أبى جهل مثلاً فصير ولم يعززع عن حق ؟ !

لقد بدأنا بالسلام وقلنا مسن الأعماق (اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام) وبعد ركعتي تحية المسجد يمثل المسلم أمام قبر رسول الله قائلاً : أشهد أنك رسول الله أدت الأمانة وبلغت الرسالة ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد .. وهى العبارات التى يذكرها المسلم فى تشييده .

وقد سمعت أناساً يناجون الرسول بقولهم (يا طه) وليس هذا من أسماء الرسول ، فقد أخبر الرسول ﷺ عن أسمائه أنه محمد ، أحمد ، الماحى الذى يمحو الله به الذنوب ، العاقب ، الحاشر أى الذى يحشر الله الناس على عقبيه فكيف نزيد على هذه الأسماء (١) ؟

وقد أعجبنى بالمسجد المحافظة على العقيدة فلا يسمح لزائر بالتمسح بالحاجز المعدنى الذى يضم فى الداخل الجسد الطاهر .. جسد رسول الله ﷺ — وأبى بكر وعمر ، وقد حاولت أن أنظر هل سوى قبر رسول الله بالأرض أو ارتفع قليلاً فلمست يدى سهواً الحاجز المعدنى فإذا الحاجز يقول بصوت غاضب : تعال هنا يا ولد ، فأجبت النداء مبتسماً فالحاجز لا يعرف أن كلمة الولد فى معبر لا تطلق على الشهاب والرجال كما تستعمل عندهم ، وقد علمنا أن قبر الرسول ﷺ يرتفع قليلاً عن الأرض .

(١) أما (طه) الذى سميت سورة به فى القرآن الكريم ، فهو كما سميت باسم (ص) و (ق) حروف مقطعة من مادة ما يستعمله العرب فى لغتهم ومع ذلك لا يستطيعون الإتيان بمثل آية قرآنية .. فهذه الحروف للتحدى والإعجاز .

وبعد أداء الصلاة بالمسجد الرحيب (١) سبها في الموضع الذي حدثنا عنه رسول الله في حديثه «ما بين بيتي ومبرى روضة من رياض الجنة» (٢) خرجنا نستكمل في أذهاننا صورة الكفاح المستميت من أجل العقيدة ونشر المبادئ البقيع ، الموقع الذي يضم رفات خيرة المسلمين الأوائل وصحابة رسول الله ومنهم عثمان بن عفان ، الحسن بن علي ، زين العابدين بن الحسين ، عبد الله بن مسعود ، الإمام مالك ، وقد سويت قبورهم جميعاً بالأرض وغير مسموح للنساء بدخول هذه المقابر فتذكرت ما يصنعه النساء بالمقابر في مصر من صنع الجاهلية ، ومقابر جنوة حرة وكنت قد زرتها صيف العام الماضي — وهي آية في الفن الجميل بما فيها من تماثيل تشدك للوقوف أمامها تتأمل صنعة الفنان الإنسان ولكنها تفسيك عبرة الماضي وليست هذه هي الحكمة من زيارة القبور .

وفي أهل البقيع روث السيدة عائشة رضي الله عنها — أن رسول الله ﷺ كان يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول : للسلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد (٣) .

ثم جبل «أحد» حيث انتصر المسلمون وهو على بعد أميال شمال المدينة وقال عنه رسول الله «أحد» جبل يحبنا ونحبه، ولما أشرف عليه الصلاة والسلام

(١) كانت مساحة المسجد على عهد رسول الله نحو ٢٥٠٠ م وقد زبدت الآن ثمانية أضعاف تقريباً .

(٢) صحيح البخاري ٢٩/٣ ، مسلم ١٢٣/٤ .

(٣) صحيح مسلم ٦٣/٣ .

— على المدينة قال : اللهم إني أحرم ما بين جبالها مثل ما حرم به إبراهيم مكة ،
اللهم بارك لهم في مدم وصاعهم ^(١) .

و كنت قد وصات إلى « أحد » في عربة أجرة مشتركا مع غيري ووقفت
أستعيد التاريخ غير أن السائق لم يهملني للعودة معه وتركني دون أن يتقاضى
أجرا . . ها هنا على جانب من الجبل رقد سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب
الذي قتل واحداً وثلاثين من قريش ثم ضربه وحشى بحرية ولاكت كبده هند
بنت عتبة تشفيا منه إذ صرع أباه في بدر .

ثم مسجد قباء الذي يقول الله فيه (. . لمسجد أسس على التقوى من
أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب
المطهرين) ^(٢) وقد بناه بنو عمرو بن عوف وسأوا النبي أن يصلى فيه ففعل
وقال عنه (لو يعلمون ما في قباء لضربوا إليه أكباد الابل) وذلك لأنه أول
مسجد في الإسلام ، وقد أهدى محرابه الخ — إلى للسعودية الرئيس
الحبيب بورقيبة .

ومسجد القبلتين حيث كان المسلمون يتوجهون في صلاتهم شطر بيت
المقدس وبعد ثمانية عشر شهرا من قدوم الرسول المدينة تحولت القبلة إلى الكعبة .
من هذا يتضح أن المدينة عامرة بمجراتها الروحية ، وسيظل أهلها متمسكين
بروح الشريعة إلى آخر الزمان إن شاء الله ، فهم لا يسمحون بأى بادرة خروج

(١) صحيح مسلم ١١٤/٤ والمقصود جبال غير واور على طرفي المدينة
جنوبها وشمالها .

(٢) التوبة ١٠٨ .

عن الآداب العامة تؤازرهم في ذلك الحكومة ، فقد رأيت مجموعة من الناس في صمخب وضجيج فأخذت أستطلع الخبر فإذا أحد الشباب قد ربي سواقه بطريقة ممجوجة فاصطاحبه مندوب هيئة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمدينة إلى حلاق ليصالح ما أفسدت أيدي الشباب من رأسه . والقوم هناك يستمكرون كل رذيلة فيتبرهون من صاحبها فإذا وجدته مثل هذا الشاب قيل لك إنه ليس من المدينة ، وإذا رأيت شحاذاً فهو ليس من المدينة أصلاً كذلك . والحكومة تناشد في منشوراتها على الوافدين على البلاد المقدسة ألا يخرجوا على العرف الاسلامي المتبع فإذا كانت العقوبات التي توقع على المخالفين غن أمراً الله بعبادتها القسوة فإنها تحمل الرحمة في طياتها كما هو الشأن في عقوبة السرقة ، والدولة هناك - فيما سمعت - تستتيب السارق فإن أعلن التوبة وضممه أحد الأهالي تركته فإذا عاد تولت قطع يده حسب تأمر الشريعة ، ولهذا فإن من تحدته نفسه بالسرقة يتردد ألف مرة قبل الاقدام فتأمل كيف يعيش الناس في أمن وطمأنينة على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم لأنه قلما تقع حادثة سرقة أو غيرها من الجرائم .

وإذا كان قيل أن الله يزج بالسلطان مالا يزج بالقرآن ، ففي هذه البلاد القرآن والسلطان ، والمعاني الدينية في نفوس الناس لها سلطانها قبل سلطة الحكومة ، صحيح أن بعض التجار هناك - حتى في بعض المكتبات أحياناً - قد يسامون في السعر ولكنهم لا يغشون ولا يخونون :

أثناء مساومتهم لشراء حقيبة سمعنا آذان الظهور فاحترمت عادة بعض التجار في هذا الوقت أن يتركوا محالهم مفتوحة ليؤدوا الصلاة وقد وضعوا قطعة قماش مبسوطة بالباب دلالة الأبيع ولاشراء فأودعت التاجر بعض الأشياء الصغيرة أمانة وتوجهنا للصلاة وحشاعت وجددت وديعتي كما هي ، وتذكرت

قول رسول الله (رحم الله رجلا سمحا إذا باع ، سمحا إذا اشترى ، سمحا إذا قضى ، سمحا إذا افتضى) فقلت : أنقذه الثمن الذي قال ، وهممت باخراج الريالات فلم أجدها فاعتذرت له من الشراء إذ ضاعت نقودى فى الطريق فرد العاجر بايسامة تخفف ما يكون فى النفس من أسف : لقد نسيت الـ ٣٥ ريالا بالمحل عند سماحك للأذان .. كيف كنا نختلف على السعر فاذا ما وقع الثمن كله فى يده -- والحقيقة عنده يخبرنى بالحقيقة ؟ إنه الإيمان والأمانة ومع ذلك وددت لو كان السعر محمدا حتى يظلمن المشتري نفسه ، ويسعريج البائع من المساومة وضياح الوقت فيها .

ومن المفارقات اللغوية أننا دخلنا مطعما فسألنا بكم نصف دجاجة مشوية ، فقال صبي المطعم : ثلاثة ريالات ونصف بالزلفة ، ولم نفهم معنى (الزلفة) هنا واستغرب الصبى عدم فهمنا فأثنى بطبق مما نسميه فى مصر بالسلطة مما أثار ضحك الجالسين ، وأخذت أعلل تسعيتة هذه لقد أبدل السين زايأ كما يقول بعضنا (مهندز) بدلا من (مهندس) والسين والزاي كلاهما حرف صفيـر .

ومن المياه الغازية فى هذه البلاد ما تسمى كعكى كولا ، بببسى كولا ، عصير البرتقال (ميشن) وسفن أب ولكنها أبدا لا ترقى إلى ماء زمزم الذى قيل فيه : زمزم لما شرب له ^(١) وعندنا أن استعادة قصته التاريخية حين زمت هاجر حول الماء ومنعته من الجريان اتروى منه ... ^(٢) كفيـلة بأن تريح

(١) وهو غير ثابت النسبة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

(٢) مروج الذهب ص ٣١٩ .

النفس والجسم تبعاً لذلك (١) .

وأخيراً حان وقت الرحيل إلى بلادنا فركبنا عربة إلى جدة حيث أمضينا في جدة يوماً جميلاً ، فقد تكون قريبة الشبه بالاسكندرية أو السويس إقبى ميناء مثلها وبها مقار لسفارات أجنبية وكان قد تبقى معنا بعض النقود فاشترينا بها هدايا كيفما اتفق بعد استقطاع ستة ريالات سعودية رسم مغادرة المطار وفي هذه المرة بلغ التيسير أن تركنا الحقائق للوزن دون أن نفتح بمعرفة رجال الجمارك بجدة فما فيها مطمئن إذاعلمنا أنه سمح لنا في مصر بحصول ٤٠٦٢٠ ر. جنينها وهو ما يساوي عشرة دنانير كويتية و ١٧ جنينها استرلينياً ، والدینار يساوي ١٢ ريالاً سعودياً و ٩ قروش ، والجنين الاسترليني ١٠ ريالات سعودية و ١٤ قرشاً وهو مبلغ يكفي رحلتنا (٢) دون اسراف في الهدايا ، وليس يرضى قائل أن يفسد زيارته بعرض زائل مهما كان .

وركبنا الطائرة التي هبطت بنا ميناء القاهرة الجوي صبيحة الجمعة ٦ من شوال ١٣٩٠ هـ . (٤ ديسمبر ١٩٧٠) وفي النفس : آيدون حائدون إن شاء الله .

(١) يقول ابن القيم « ولقد أصابني أيام مقامي بمكة أسقام مختلفة ولا طبيب هناك ولا أدوية كما في غيرها من المدن فكنت أستشفى بالعسل وماء زهرم ، مفتاح دار السعادة ١ / ٢٠٠ .

(٢) الريال السعودي يساوي ١٠ قروش مصرية .

المقالة الثانية



« وقال اركبوا فيها باسم الله مجرّاها ومرساها إن ربي لغفور رحيم »
(هود ٤١)

أبحرت الباخرة من ميناء الاسكندرية في الساعة الخامسة مساء
١١ / ١٠ / ١٩٧١ والأمل يغمرنا في قضاء وقت طيب ومفيد لا يهكر مزاجنا
دوار البحر ، وقد جريت نفسي في مرات سابقة في ركوب البحر ، والبحر
الأحمر خاصة في رحلة إلى الفردقة وهو أكثر هياجا من البحر الأبيض
المفوسط وحمدت الله أني لا أصابهم هذا الدوار وقد زادني يقينا بالله أن الاجراءات
الأولى للرحلة كانت ميسرة تماما . . الجوازات ، التطعيم ، تذكرة الباخرة
حجزتها في يوم بدء الرحلة بسعر مخفض قليلا ، إعداد حقيبة السفر خفيفة وغير ناقصة .
(قبرض ايا سول) :

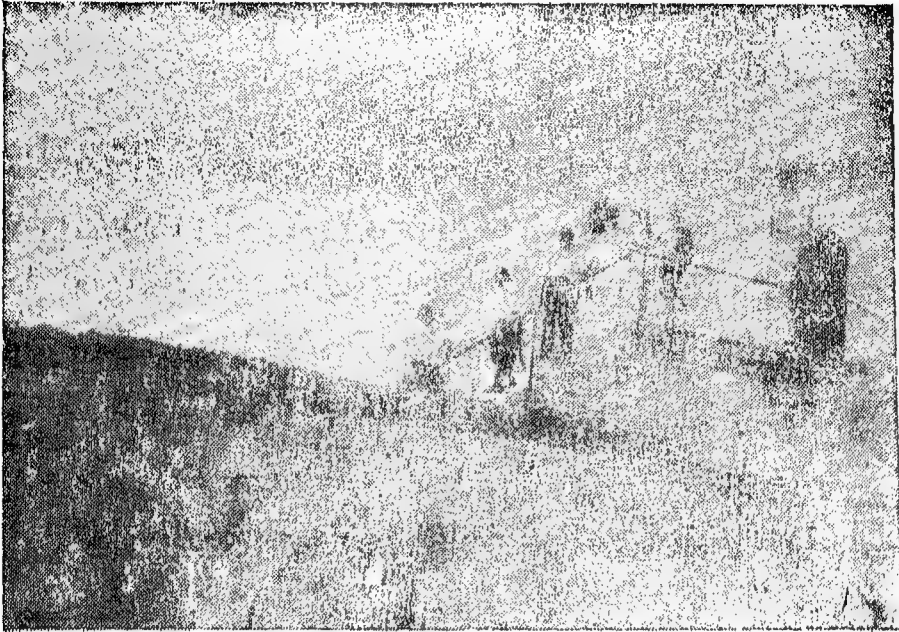
الباخرة في البحر متهادية كأنها لا تريد أن تفتزعنا مريعا من قلب وطننا

حتى وصلت في اليوم الثاني إلى ميناء ليماسول (Limasol) بقرص الساعة
الثانية بعد الظهر .

ليس بهذا الميناء رصيف فتقوم اللنشات بنقل الركاب مقابل دولار للفرد
حيث ضالة الجمر لك قريب .

يخرج الفوج المصري وعدده ٧١ راكبا ليستقل عربتين من عربات
السياحة ، تصطحبنا مرشدة نصف اتقول بالانجليزية هادئة : عدد سكان قبرص
٦٣٠ ألف نسمة ، ٨٠ ٪ منهم يونانيون ، ١٨ ٪ أتراك ، ٢ ٪ جرمانيات
أخرى . اللغة السائدة اليونانية والأتراك يتحدثون التركية ، وتستخدم
الانجليزية تقريبا في كل مكان أكثر من الفرنسية .

الجو دسحو ، لا يفترق كثيرا عن الاسكندرية ، السيارة تأخذ طريقها في
أرض فضاء شاسعة المساحة . . من بعيد قاعدة انجائزية ، وها هي قلعة



قاعة كولونسي

وسمى Kolossi Castle مبنى ارتفاعه في نظري نحو ١٧ متراً له مدخل
ذتان أو ثلاث ولكن لا يمكن أن يرقى إلى مستوى آثارنا في الأقصر
، ومع ذلك فهم يهتمون به لأنه قطعة من التاريخ إذ أنشئ في عهد
البيين .

ثم ما يطلق عليه Curium مكان قديم دارس يشمل مسرح الرومان
كانوا يعذبون المسيحيين بإطلاق الأسود عليهم . وعلى مقربة منه
ون للغرض نفسه .

ومن أجل ما سمعت من امرأة أن يرد على لسان المرشدة « من الممكن
تنتزع الذهب من أصبع - وتشير إلى أصبعها - ولا يمكن أن تنتزع
يمان من قلب » .

ولعل مرجع القصور في تلقى مزيد من المعلومات عن هذه الأماكن إلى
الرحلة أكثرها كانت تستعجل العودة إلى قلب المدينة لشراء أشياء تنفعهم .

لقد دفع عجب إلى المحلات بحثاً عن الصوف الإنجليزى في المقام الأول
منعرب فمناعنا المصرية تنتج صوفاً جيداً وصدق الشاعر :

وكل الناس مجنون ولكن . . . على حسب الهوى كان الجنون
نقلت في المدينة على قدر ما سمح وقتنا الضيق ، في الناس وداعة وكتب قد
كرت قول فتاة يونانية بمصر تشكو قسوة أبيها في معاملتها وتصفه بأنه
ناني « صعيدي » فأسألها : كيف ؟ فتقول يعني قبرصى . لابد من معاينة
اسي وقتنا طويلاً لمعرفة حق المعرفة .

وفي نحو الساعة السابعة مساء بدأت المحلات تغلق أبوابها. فأخذت طريقى
الى الجمرى قبل الرحيل بمدة كافية أستطيع أخباره .

وفي هذا الشارع كانت عربات الأجرة كثيرة واقفة مختلفة الألوان لا يظهرها
إلا لافتة كتب عليها Taxi ذهبت ربما لتتألم .

أدخل صالة التفتيش الجمرى ليس فيها إلا عامل واحد بملابسه الرسمية
أثقل فى صمت أقرأ اللافتات بالانجليزية . ممنوع تصدير الصحف إلا بإذن .

هذا مكتب المهاجرين . مكتب لقيد التليفزيون والراديو . استعلامات ،
بنك وأسأل عامل الجمرى عما هو مصرح بإدخاله بدون رسوم فيقول : زجاجة
من الخمر وكرتونة سجائر ولكن رفاقا فى الرحلة ذكروا لى أنهم منعوا
الدخول بكرتونة سجائر لكل منهم وحجزت ريمما بعدون من جواتهم فى
المدينة والسبب أن تأشيرة دخولهم : ثرانسيت ، ولا تهاون فى تطبيق القانون .

وقد كانت طريقة تفديش الحقائق عند الدخول تبدو جادة فممنوع أن
تكون الأشياء ذات صفة تجارية . وكذلك تبدو الجديدة فى صيغة هذه اللافتة :

passengers are reminded that any breach (خرق) of the
condition makes the article forfeit to the republic under 158 of
the customs and excise (ضريبة) law 1967 .

هذا وقد تميت أن أزور فى قبرص نيقوسيا ، فاما جوسعا ، كيرنيا . فقيهما
آثاراً أيضاً . وصعدنا الباخرة بعد العبور باللاش حيث بدأت مغادرة الميناء
الساعة الثامنة مساء اليوم نفسه .

وسأل بعض الرفاق : ماذا أشتريت ؟ فأجبت بالنفى فتصيح سيدة : ودانى

انه مخبرات علينا ، فأدركت أن الحساسية وظيفة جانباً آخر إلى النسبة للجمهور
الرحلة ، الصداقة بالباخرة لا بأس بها .. عند الشراء من المحلات لادامى
لها .

نجتمع ثانية في الباخرة ، يتحدث بعض أنه اشترى زجاجات ويسكى
ودانا صغيرة مشروبات روحية ، ويسألني اذا كان جرك الركب بمصر
يسمح بهذه الكميات فأرد : لتر واحد من المشروبات الكحولية فيقول أحدم :
ألا يبحث تجارز ؟ فأقول . ينبغي للتشدد في إدخال المشروبات الكحولية
ولا يسمح بأية كمية بالنسبة للمسلمين الا به صد دفع رسوم عالية ، فتد عائلة
مسيحية : إن ديتنا يمنع أيضا هذه المشروبات لاسيما إذا أفضت الى سكر .

لبنان (بيروت) :

وداعا قبرص ، الباخرة تتجه إلى ميفاء بيروت حيث تصل اليه نحو الساعة
صباح اليوم التالي ، عربنا السياحة يكتفي باحداهما إذ أعرب كثير من أعضاء
الرحلة أن تكون زيارتهم للمحلات وجولة جرة في الأسواق .

انجمت بنا العربية إلى داخل المدينة حيث ميدان الشهداء لعربنا من بعد
بعض المصايف في محافظة جبل لبنان : عالية ، بحدون ، صوفر ، شعرة .

بعض الطرق يبدو ضيقا ومع ذلك تسير فيها العربية جهارة كطريق ماريا ..
هانا . وقد ازدهرت ماريا كمصيف حتى سنة ١٩٤٥ وهي تبعد عن بيروت
بنحو ربع ساعة ، الأمر الذي جعلها تزدهم بالسكان ويهجرها المصطافون
بعضا عن مناطق الهدوء والارتفاع عن سطح البحر أكثر من ٦٠٠ متر .



لبنان

بعلبك : زيارة أخرى إلى مدينة بعلبك في محافظة البقاع بالقرب من الجبل الشرقى في عرض ٣٤° ١١' شمالاً ، وطول ٣٦° ١١' شرقاً ، وهى من كلمتين : « بعل » ، « بك » أى رب الوادئ بالنفيم بقمية^(١) وقيل إن أصلها بعل بقم^(٢) وقد ذكر عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه أنه اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها بعلبك غربى دمشق .^(٣)

وربما ذكر الراوى قوله « اسم صنم » تخرجاً من أن يذكره حسب اعتقادهم أنه (رب) والمدينة شمالاً غربى دمشق على بعد ٦٠ كيلومتراً منها وأيا كان الأمر فهى تدل على أصلها العريق .

وثمة معابد رومانية بناها الساميون ، ويرتفع البناء على البحر ١٢٥ متر . كان عدد السكان آنذاك نصف مليون نسمة فى بعلبك لصلاحيه القربة لزارعة فى سهل البقاع إذ يجرى فى هذه الأراضى نهر العاصى والليطانى . وتحف بعلبك بجبلين الأمر الذى جعلها محصنة من الغزاة والقراصنة ، وحيث توجد المحاجر بيت المعابد . وأضيق الأعمدة فى المعبد نحو سبعة أطن . هنا تمثال لإله الشمس جوبتر ، وإله الخمر باخوس يحمل كرمه غنب وإلهة الحب والجمال فينوس ، وإله الصبغة هيبيجا ، وإله الحصاد ساريس .

(١) رحلة مصرى الى فلسطين ولبنان وسورية .

السيد عبد المؤمن كامل الحكيم ص (١٣١) ، ط السلفية بمصر سنة ١٩٢٤

(٢) حدثنى ثمة أن « بقم » بالسامية تعنى السهل وحرفها اليونانيون الى

(بك) فى عهد الاسكندر .

(٣) تفسير ابن كثير ٢٠/٤ وذلك عند قوله تعالى « أندعون بعللا

ومندرون أحسن الخالقين » المصافات ١٢٥ .

في الطريق نجد ميناء صغيراً في بيرة يدعى «زيا» للمراكب الصغيرة واليخوت،
لافتة ترحب بمقدم أجنينو Agenew نائب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية^(١) في
١٥/١٠/١٩٧١ وأصله - كما يقول المرشد السياحي - فلاح يوناني .

الشوارع نظيفة ، دافئة ، الكناس يرتدى زيا أبيض كأنه مطمئن إلى أنه
لن يتسخ سريعا .

المواصلات تبدو مزدهجة وفي الإمكان زيادة عدد الأنوبيسات ولكن
زيادتها قد يخلق مشكلة للمرور . أما الأنوبيس السياحي فمنوع أن يقف فيه
سائج التماسا لراحة السائحين .

وكذلك تغاني المدارس من زيادة عدد الطلبة وقد حلت المشكلة بأن تكون
الدراسة على فترتين كما نجد في مصر بالنسبة لبعض المدارس .

وتمضي العربة مارة بكورنيش أبولو وبين الحين والآخر يتحدث المرشد :
هنا مرصد جوي ... يبعد مطار أثينا ٧ كيلومترات من طول البحر .

ها هي أثينا العاصمة ، رمز الحضارة الاغريقية القديمة ، لقد زرتها منذ
ثلاث سنوات في مهمة مصالحة لاتمام الاجراءات الجركية على فوج سياحي
اختصارا للوقت حين حضورهم إلى جمر كركاب بالاسكندرية ولكن لم أزر
آثارها في ذلك الحين فقاتني نفع كثير وهي مدينة جميلة دائرية الشكل عماطة
بالجبال ومنها جبل بندلي الذي يؤخذ منه الرخام . وأشهر آثارها الاكروبول
وتعني كلمة أكربول قمة المدينة باليونانية .

(١) هو اسبيرو أجنينو وكان قد خضع للتحقيق بتهمة الفساد والرشوة أثناء
عمله كحافظ ، وكنايب للرئيس نيكسون فقدم استقالته من منصبه في

١٥/١٠/١٩٧٣م

وهو مقر الحاكم وكبار الموظفين ، ويعتمد إليه الأهالي للدفاع من أنفسهم أثناء الحرب .

ويروى المرشد - وهو يوناني أقام في مصر حياته ويعلم العربية باللهجة القاهرية كأهلها - أن آخر ملوك أثينا يدعى كودروس قتل بنبال العدو ، بعد هذا تولى الحكم تسعة من النبلاء كانوا يختارون سنوياً ثم اتخذ الاكروبول مكاناً للعبادة إذ كانت آلهتهم أحد عشر منهم مثلاً أفيستوس إله الحرف .

وقد دس الفرس الاكروبول بعد عشر سنوات من غزوم سنة ٤٩٠ ق.م. ولأثينا ربة العفاف ، وحارسة الشابات اللاتي يعملن بالابرة تمثال في الاكروبول يمثل النصر .

وفيه أيضاً البارثينون وهو معبد العذراء ويقعدها أثينا التي لم تزوج وهو مكون من ٨ × ٧ عموداً - وإيركثون وبه كارياتيد وهو عبارة عن ٦ تماثيل لشابات عفيفات من « كارياء » وهي قرية صغيرة بجوار أسبرطة . وبروبيليا : ويقصد به مدخل المعبد .

وعلى بعد دقائق من الاكروبول تجد تمثالاً للورد بايرون الشاعر الذي عاش في اليونان .

وتنتهي زيارة الاكروبول لنستقل عربة السياحة ... هذا هو الأستاذ الأواجي الذي يسع ٧٥ ألف متفرج ، طوله ١٨٠ متراً ، عمره ٧٥ سنة . وها هو القصر الملكي من دورين حيث نرى فتيين في ملابس رسمية يسندو غريبة

هائنا يسيران ذهاباً وجيئة أمام القصر، وقد أخذ السائحون في التقاط المناظر
بآلات التصوير .



القصر الملكي باليونان

هنا البرلمان ، المفوضية المصرية ، شارع الجامعة من أهم الشوارع وبه
الحكمة العليا ، بنك اليونان ثم توقفت السيارة ليدخل إخواننا المسيحيون في
الرحلة إحدى الكنائس ودخلت معهم ، وبعد أن أوقد كل منهم شمعة أنتظر
خادم الكنيسة فترة ثم قام باطفاء الشموع فسألت سيدي لماذا فعل هذا؟ قالت لأننا
لم نضع نقودا في الصندوق المخصص لذلك ... فتهمست ولا أدري من
المخطئ .

ويذكر المرشد أن في أمينا مسجدا أيضاً.

وفي اليوم السادس واصلت الباخرة مجراها عبر بحر إيجه مارة بقناة كورنثيا Corinth تلك القناة التي تصل خليج كورنثيا ببحر إيجه وهذا الخليج الطويل يكاد يفعل شبه جزيرة المورة عن باقي اليونان ... منظر رائع بالليل في ضوء المصابيح ، ثما بالك بليلة قمراء !

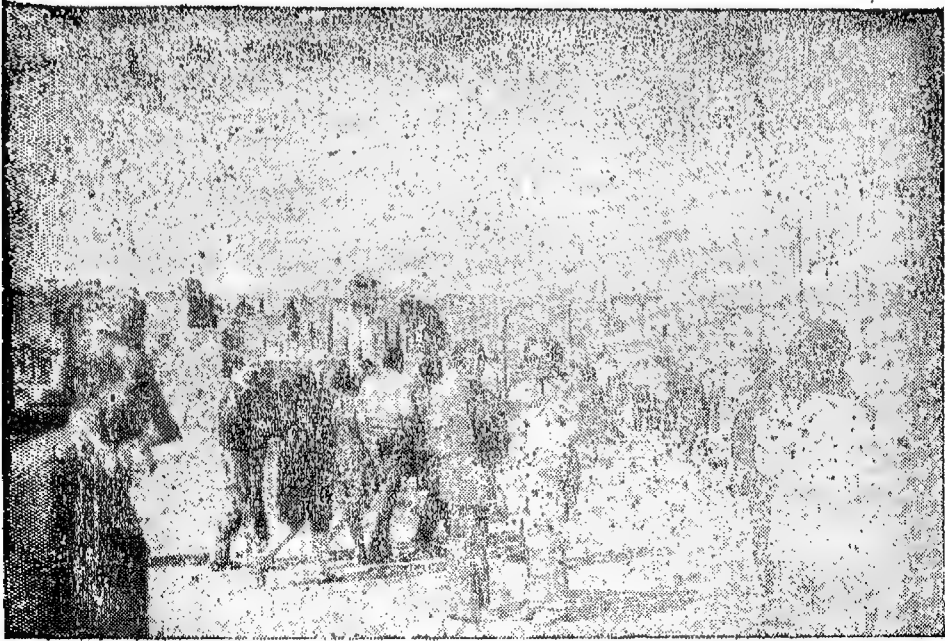
ومررنا بعدة جزر وفي الساعة ، سهره مساء أعلنت المذيعة بالباخرة أننا سنمر بمضيق مسينا الساعة الثامنة مساء وهو مضيق بين جزيرة صقلية ومقدم الحذاء الايطالي في الجنوب ورغم نسائم لا تخلو من برودة وقفت ساعة أو تزيد أسعمتع بالمنظر البديع ، السحاب الداكن والشفق الأحمر ، والأضواء العنماية كأنها مصابيح ألقيت في البحر.

إيطاليا (بومبي) :

ثم تصل الباخرة ميناء نابولي في الصباح الباكر ... ونستقل عربة سياحة إلى بومبي Pompei عن طريق الأتوستراد حيث تبعد الميناء نحو خمسة كيلومترات قطعها السيارة في نحو نصف ساعة .

وبومبي مدينة أكلها البر كان عام ٧٩ ميلادية بها معبد أبولو الذي أنشئ سنة ٣٠٠ ق.م ومعبد جوبيتر .

وثمة بيت وصفه المرغد—وهو إيطالي يتحدث الانجليزية في غير طلاقة— بأنه «أحسن» بيت لما يجدران الحجرات من مناظر زاوية كأنها رسمت بالأمس



في بومي

القريب . وبه حجرة مائلة الأرضية لكي يتناول الملك الأكل مضطجعا على
على أريكة ناظرا إلى حديقة تطل عليها الحجرة .

ثم انتقلنا إلى ما وصفه المرشد بأنه « أكبر » بيت . وفي تلك المنطقة وقعت
معركة بين الاسكندر وداريوس . وفي المدخل تمثال تقليدي أصله في نابولي
للملك داريوس (٥٢١ ... ٤٨٤ ق.م) ^(١) خلفه ذيل حصان ليمثل الفروسية .

(١) يحكى المسعودي أن دارا، كانت تسميه الفرس داريوس وهو أحد
ملوك الفرس ، قتله الاسكندر المقدوني وكان ملكه إلى أن قتل ثلاثين سنة =

وفي الساعة الرابعة مساء تغادر الباخرة الميناء وأتذكر مثلاً بقوله المهاجرون
الإيطاليون في الأرجنتين — كما رواه لي لبتاني يعمل في الأرجنتين،
Ver Napoli y morir أى أعيش في نابولي وأموت ويذكر أن نابولي أم
نهر حربي في إيطالي وثانية نفورها التجارية بعد جنوا .

والعل حسن موقعها وطيب هوائها وجمال المناظر فيها جعلها مطمح
الأجانب ، فقد توالى عليها حكم اليونان فالأ* وسكين Os ques فالرومان
فالقوط فالبيزنطيين Byzantins فالنورمانديين — أو المجرس كما يذكرون
العرب — فالأ* لان فالأ* سان .

إيطاليا (ليفورنو) :

وتغمر الباخرة عباب البحر لتصل إلى ميناء إيطالي آخر ... ليفورنو
الساعة الثامنة صباح اليوم التالي حيث أعدت رحلة بالسيارة إلى بزج بـيزا
.. في الطريق . مصانع زجاج السيارات والكراستال : دقناة تسمى

= (مروج الذهب ص ١٧٥) وذلك حين طالبه بما كانوا يؤدنه من خراج إلى
فارس على عهد بختنصر « وكان خراجهم أيضا من ذهب وعدداً معلوماً ووزناً
مفهوماً وضريبة محصورة ، ولكن الاسكندر بعث إليه : أنى قد ذبحت الدجاجة
التي كانت تبيض بيض الذهب وأكلتها ... ص ٢١٦ وما بعدها .

وبستطرد المسعودي بأن الاسكندر تزوج من ابنة دارا بعدما قتله ولما
قبض الاسكندر عن ست وثلاثين سنة رثته زوجته بقولها : ما كنت أجسب
أن غالب دارا الملك يغلب . ص ٢١٩ .

Sostente « نهر أرنو عليه كبرى ضخمة وقناطر لحجز المياه الفائضة وتحويلها إلى أراض أخرى.

ويانعس في أذهان الكثير أن برج يزا المائل من عجائب الدنيا السبع والحقيقة أن لافهذه العجائب: الأهرام - حدائق بابل المعلقة - تمثال «زيوس» الأولمبي - تمثال الشمس في رودس - معبد ديانا في أفسوس بآسيا الصغرى - للضريح العظيم في هاليكارناسوس بآسيا الصغرى أيضا - منار الاسكندرية . ولم يبق من هذه العجائب غير أهرام مصر .

ومع ذلك فإن آلاف السائحين من شتى الجنسيات يزورون البرج ويقفون أمامه مشدوهين . وهنا يحدثنا المرشد وهو شاب إيطالي كأنه نجم سينمائي أناقة :

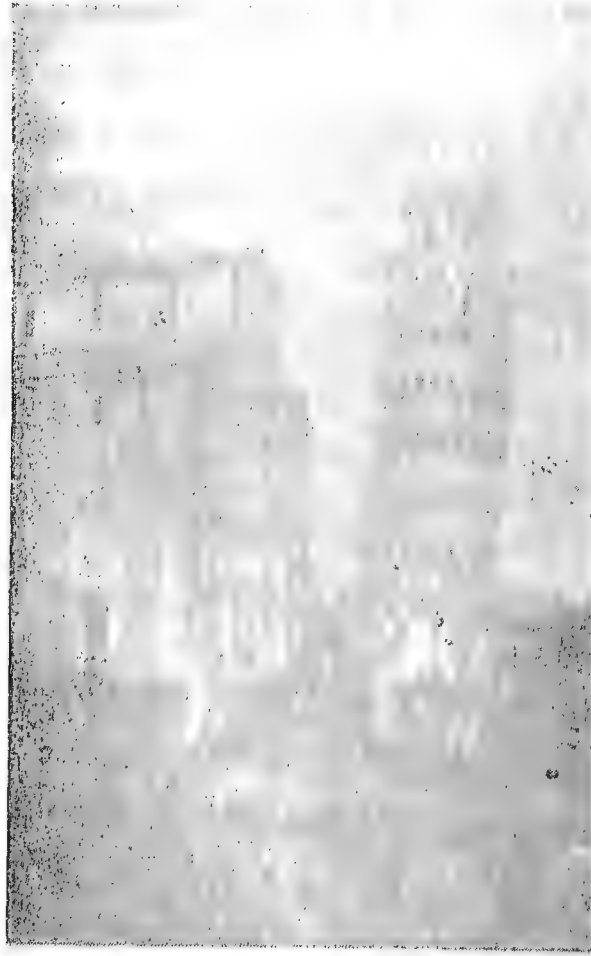
بنى البرج سنة ١١٥٣ م في مدينة يزا (pisa) أو كما نرد في كتب الجغرافية القديمة بالعربية ييش أو يشة تلك المدينة التي كانت مستعمرة يونانية ورومانية ، وبها جامعة من أقدم الجامعات في إيطاليا سنة ١٣٤٣ . وهي نشيطة بصناعاتها وتجارها .

أنشئ البرج ليوضع به جرس الكنيسة المقابلة له . ارتفاعه نحو ٥٤ مترا أساسه في الأرض ثلاثة أمتار ، يميل البرج مليمترا واحدا كل سنة ، وعلى هذا فمن المعوقع أن يسقط نهائيا سنة ٢١٥٠ إذ أن الأرض المقام عليها رخوة .

وهو من ثمانية أدوار صعدت منها ثلاثة على السلم المكون من ثلاثمائة

درجة . الأول ٥٧ والثاني ١٣ ، الثالث ٣٠ درجة . وكل دور محاط بأعمدة
طويلة تعطيه منظره الهندسي الرائع .

وقريب من البرج مبنى لتعميد الأطفال به من الداخل تماثيل تكاد
تنطق . وفيه صناديق لكل صندوق سماءان . ومن الممكن أن تسمع بواسطة



برج يرا

إحدى هاتين الساعتين صوتا باللغة التي تريدها من الانجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية أو الألمانية عن تاريخ المكان ووصفه . وذلك بعد أن تضع في ثقب بالصندوق مائة ليرة إيطالية .

وقد لاحظنا انتشار هذه الصناديق في بعض الأماكن السياحية الأخرى، وهي تغني عن المرشد لاسيما أنها مزودة بصور متحركة .

وفي جو المدينة الصحو قتنا بجولة حرة على قدر ما يسمح به الوقت . وقد توجهت إلى أحد البنوك في منطقة البرج لتعويل ليرات لبنانية إلى ليرات إيطالية . فاعتذر الموظف لعدم الاختصاص وأرشدني إلى البنك الذي ينبغي أن ألتجأ إليه بالانجليزية فلما أخبرته أنني غريب عن المكان قدم لي خريطة مطبوعة كان لها وقع طيب في نفسي .

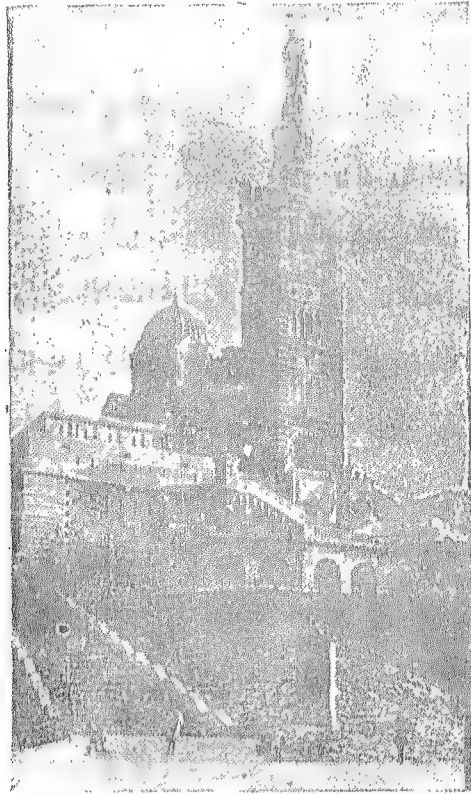
فرنسا (مرسيليا) :

وغادرنا إيطاليا نحو الرابعة مساء إلى ميناء فرنسي جميل وهام .. مرسيليا وذلك في صباح اليوم التالي.

تبعد مرسيليا عن العاصمة الفرنسية بمسافة يقطعها القطار في عشر ساعات تقريبا والطائرة في ساعة .

ولقد كانت مدة بقائنا في هذا الميناء نحو عشر ساعات زرنا فيها كنيسة سي.نا الحارسة Notre dame de la Garde والتسمية تدل على الاعتقاد بأن السيدة العذراء تحرس أهالي المدينة. والبشارة الذين كانوا يقدمون عليها للصلاة شكراً على نجاتهم من البحر. وقد بنيت في عهد نابليون الثالث سنة ١٨٥٠م.

وتقع الكنيسة على ربوة مرتفعة تظهر منها المدينة جميعاً بمبانيها ذات الأسطح المثلثة الشكل بقرميد أحمر كأنها الشفق .



كنيسة الحارس

ويرتفع شمال البذراء والمسيح في طبقة مذهبية. وفي الداخل العذراء والمسيح أيضا يلبس تاج الشوك .

وفي خلال خمسة كيلومترات — بعد الكنيسة من الميناء — أتيح لنا النظر

إلى مجال المدينة من العربية البياحية ، ولعل أهم المعالم قلعة الكرويش .

في المحلات التجارية :

ثم وقفت العربية لتتجه كل مجموعة من الرحلة حسب اختيار طريقها لزيارة المحلات وقد تردد أن الأسعار في فرنسا مرتفعة غير أن رفقة في الرحلة لاحظت أن الثمن المعروض لبيع الزبيب واللوز والقراصيا فرنكات قليلة فذهب إلى محل لتحويل العملات الإيطالية إلى فرنكات ، وعاد المحل ليقول للبائعة أعطيني كيلو من الزبيب و كيلو من اللوز و كيلو من القراصيا فبدأ الاستفسار على وجه السيدة البائعة وأسهرت إلى المحزن لتعد كيلو الزبيب ثم أسهرت ثانية لتعد كيلو اللوز وثالثة للقراصيا ولما نفذها للثمن كانت مفاجأة للسيدة أن المبالغ الذي يعرضه عشر قيمة الأشياء التي طلبها : إنه لم يساوم ، ولحسن عيني أن السعر المعروض هو للثلاثة جرام .

وتوجهنا إلى رصيف يدعى Maroc أي مراکش ترسو باخرة تاتي موعدانا المحدد وقد أتبع صدرى فوج من السياح يركب من مرسيليا إلى بلدنا . . . الاسكندرية ، وشباب من مصر كان يمضى فترة أجازته في فرنسا .

ها هي الباخرة ترفع العلم في طريق عودتها .

الناس يتحدثون بالباخرة عن شيء مؤسف ، سيدة تدخل محلا كبيرا يملأها أن تجد البضائع من غير بائع . . تمتد يدها إلى زجاجة كولونيا . . تدسها في الحقيبة ولا تتجه إلى الخزينة لدفع الثمن . . تنهم بالخروج ولكن تصبح فيها لجدي العاملات تنهمن باللعنوصية وتضطر المرأة إلى دفع ثمنها غرامة دون

أن نأخذها... هكذا النظام المحل... ترى هل العاملة الإسرائيلية المزيج أراحت
أن تتعقم من مضربة، أم أن رقيقة الرحلة أضعافا طمع... فأخطأت؟ إن
بهذه المحلات كاهينات وغيونا شعورية تلفظ ما يدور في المحل وتنعكس على
شاشة تليفزيونية تعمل بإشراف مختصين ولكن الغريب قد لا يعرف فيخطئ...
وسبحانك ربى من يحس أنك تراقبه لا يضل .

إيطاليا (جنوا):

في صباح يومنا العاشر من الرحلة نعود إلى إيطاليا في ميناء لم نقف عنده
في طريق الوصول... جنوا ولعلها في اتساعها للصكوك تعتبر نهاية المدن
البحارية بمحوض البحر الأبيض المتوسط بعد مرسيليا .

وتزجج أهميتها كما يقول الجغرافيون - إلى وقوعها قرب بحر يوككتا
Bocchetta أى النهر الصغير الذى يربطها بسهل لمباردى فنبات أهم مخرج
لتجارة هذا السهل ولجزء كبير من تجارة سوسة.

ولقد كان قاعدتنا من جنوا شاطئ بورثوفينو الذى يبعد عن الميناء نحو
خمسين كيلو مترا ويعتبر من أشهر الشواطئ العالمية. ولكنى أرى أن الطريق
إليه أروع وأجمل .

في القرية دلنا المرشد السياحي على بيت صغير مـسـكـل بأوراق الشجر في
ميدان ذى مبان فخمة، ولكن هذا البيت بتاريخه العريق يسمو على هذه
المباني... إنه بيت كريستوفر كولمبس البحار الإيطالى (١٤٥١ - ١٥٠٦م)
مكتشف أمريكا .

مرقت السيارة من أنفاق طويلة تحت الجبل تخالها الضوء الصناعات فزادت
جمالاً، ولقد ذكر المرشد أن الكوبرى الذى تسير قوقه العربات مقام على
قاعدة طولها نحو سبعين متراً وترى من فوقه المدينة مكسوة بخضرة الشجر .
وبعد نداعة تقريباً من جنوة نهر طريقاً إلى قصر اكساسوار حيث كان
يقيم آخر ملوك مصر .

ونصل إلى بورتوفينو لنقضى وقتاً مريحاً ثم بدأنا العودة الساعة الحادية
عشرة وأربعين دقيقة صباحاً لنمر بالشرارح المسيحية والتمثال اللافنة للنظر
بكثرتها وتمثال طارية كأنها تنحدرى تقاليد العصور الوسطى فى عصر النهضة
الذى برع فيه فنانون كما بكل انجلو (١٤٧٥ - ١٥٦١ م) وايوناردو افينشى
(١٤٥٢ - ١٥١٩ م) ولا ينسى النحات فيها أن تعبر عن القوة والمجد فى غريما .



مدخل مقابر جنوة

لقد زرت فى رحلة سابقة مقابر جنوة . ولعلى أصفها - ولا أبالغ - إذا قلت
إنها الحياة كما رآها فنانون .

لا يزال ثمة نحو ثلاث ساعات لغادرة الباخرة الميناء ، الوقت ضيق جداً
بعد تناول الغداء فاكتملت بالمرور في الميناء وحواليها تقريباً من الرصيف الذي
رسو عليه الباخرة ، ولفت نظري كثرة الاوتاش المقامة على روافع أى
تفسير على أرض وهى سلسلة الأرقام ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ فالضائع
ت الباخرة إلى عربة النقل تنقل برفق وحرص .

وعند دخولي من باب الجمر لك لافتة تقول « تنبيه » بعد سبعين متراً الجمر لك
لحركات تمهيداً لتفتيشها فلا تمرق قبل السماح لها بالدخول في الدائرة الجمر كية ،
رحسن أن تكتب اللافتة بالانجليزية والفرنسية والاطالية .

١٥ هى الباخرة تأخذ طريقها جنوباً حذاء الساحل الايطالى لتتوقف في ميناء
قاربلى مدة ثلاث ساعات ، الوقت ضيق . وكنت قد زرتها العام الماضى فلا
حاجة الى التجول في شوارعها كثيراً .

وتستأنف الباخرة عبورها البحر ، وفي المساء نقضى وقتاً ممتعاً مع الرفاق
حينما في حفلة سمر ، أو مع التليفزيون الايطالى حينما آخر في عرضه الضاحك
للوريل وهاردى وغيره .

وقد التقينا بشاب سويسرى يعرف ثلاث لغات أجنبية ليس منها العربية
الا في كلمات قليلة منها « أمل حياتى » و « أروح لمين » وهما مطلع أغنيتين
لأم كلثوم ويسأله بعض الشباب المصرى أن يروى لهم نكتة بالفرنسية فيسأل
أعن حياته الخاصة أو العامة ، وقبل أن يجاب ينبرى شاب مصرى ليروى له
نكتة بالفرنسية... لا بد من النكت .

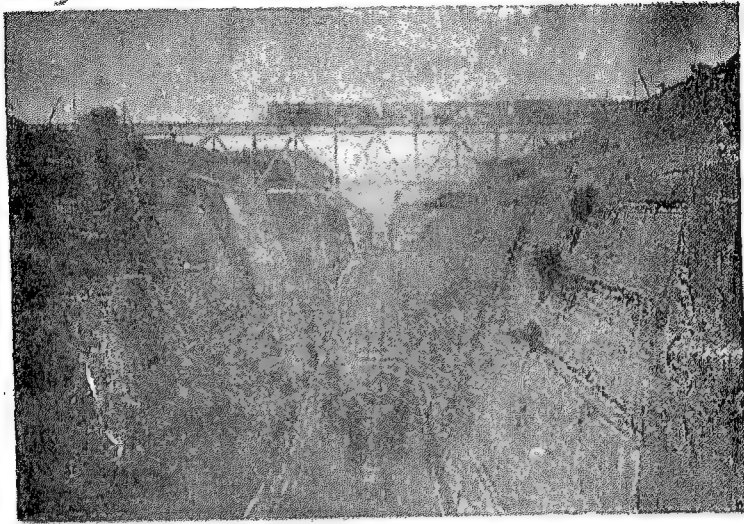
و كنت كلما رأيت هذا الشاب السويسرى أرحب به بكلمة « أهلاً »
العربية وشرحت له أنها مثل Welcome بالانجليزية ، وأفضت في الشرح أنها

من كلمة أهل أى family فننا حين نقول لها للقادم نقول لقد صادفت أهلا مما يدل على اعتزازنا بهذا القادم فننزل منزلة أحد أفراد الأسرة ، والشاب يسمع منى وقد بدا عليه الارتياح لهذه المحصلة في الشعب العربى فكان كلما رآنى - وهو لا يعرف اسمى - يقول : مستر أهلا .

اليونان (بـيريه) :

وفي مساء تعان مذبة البخارة أننا سنمر في الصباح بقناة كورنثيا هذه القناة التى أعجبتنا لئلا نحصر على أن نراها أيضاً بالنهار ، وقد رأيت السياح الأجانب والمصريين كلا منهم يجتهد أن يأخذ مكانا مناسباً من البخارة لتتضح له الرؤية .

شقت القناة سنة ١٨٨٠ م في برزخ كورنثيا الضيق الذى يصل شبه جزيرة اللورة بباقي اليونان طولها نحو ست كيلومترات قطعتها البخارة في نحو نصف ساعة .



قناة كورنثيا

إنه منظرها بالليل - فيما أرى - أجل منها بالنهار في جانبيها الصغرى
الذين تنبت عليهما بعض الشجيرات ويربط بين الجانبين جسر حمر عليه الشبكة
الحديدية والسيارات .

ولكن شقت القناة لتيسير الملاحة للسفن الصغيرة لكي تعجب الصغرى
وتنأى عن العواصف في جنوب المورة ولتتصير المسافة بين الساحل الغربي
ليونان وسواحلها التي على بحر إيجه ، فان الفائدة سياحيا لهذه القناة لا يمكن
إغفالها .

وبعد ساعتين ونصف من المرور من القناة رست الباخرة بميناء بيريه في
التاسعة وأربعين دقيقة صباحا ، ومن المقرر أن تغادر الباخرة الميناء الساعة
التاسعة ، مساء اليوم نفسه وهذه أطول فترة تبقى فيها بميناء طوال الرحلة ،
ولاعجب فالباخرة يونانية ، والبجارة يريدون أن يقضوا في بلدهم فترة
مناسبة ، ولعله قصد أن يتاح لأعضاء الرحلة فرصة كبيرة لمشاهدة المدينة ذات
الطابع الديمقراطي التقليدي ، وتقديمها المستقر .

لقد كان أول غرض أن أزور المحطة البحرية الجديدة التي تقيم الجوازات
والجمر لك . إنه بناء فخم ضخم ، ولكن مبنى الجمر لك يمكن قد استخدم واستخدمت
مكاتب البرق والتليفون .

ثم التجوال في شوارعها إنها نظيفة ، القمامة ملقاة في أكياس نايلون كاس
هو الشأن في إيطاليا ، نتمتع بالهدوء فيما يبدو .

هذه مقاه مليئة بالجلوس . إنهم من أرباب المعاشات قريبا أظن ، فالساعة
الحادية عشرة تقريبا أي وقت عمل أو لعلهم ينتظرون عملا في القهى .

الرغبة في شراء الحديداء أخذت حظها في النفس ، فقد كدنا نصل الى الاسكندرية ولما أشتري شيئاً ذا قيمة تقريباً في الموانئ السابقة .

بم تشتهر اليونان ؟ انها زراعية قليلة المساحة وأهم غلاتها الزراعية الطباق والزيتون والفواكه مثل التين والعنب البناني - كما نسميه في مصر - وهو يزرع عند خليج كورنثيا ويحذف إلى زبيب ، ويسمى بالإنجليزية *currents* مأخوذاً من كلمة *Corinth* اسم الخليج بالإنجليزية .

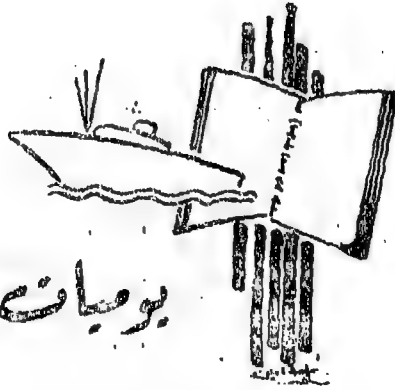
فاشتريت زبيباً وتيناً مجففاً وقراصيا بكميات متواضعة ووضعتها في حقيبة اشترتها من اليونان أيضاً وهي مشهورة بدبغ الجلود .

وتوجهت الى الجمرک لأعرض فتح الحقيقة على حرس الجمارك ... كما نفعل في مصر ... فاستغرب مني أن أفتحها فذهبت إلى موظف آخر فلم يكن أقل استغراباً . كل ما طلبه أن أطلعه على جواز النزول الى الشاطئ .

ويتمنى يوماً الأخير في هذا الميناء لتواصل الباخرة عبورها مرة بجزيرة كريت ، نحن في اليوم الثالث من الشهر العربي . . رمضان المعظم نتناول طعام السحور وكلما اقتربت السفينة من الإسكندرية زاد حنيننا إليها . . هيونما لا نطاولها على النوم ، نريد أن نرى أثراً ولو من بعيد يدل على بلادنا كان معنا شباب مسافر من مصر وأقسم ألا يعود فإذا هو يهود .

انتهى الرحلة في ٢٥ / ١٠ / ١٩٧١ قد تغيب المناظر . . ويغيب الأشخاص ويبقى أن بلادنا لا تقل روعة عن الموانئ التي زرتها واستمتعنا بها ، إنها كنوز أثرية يجب أن تنفض عنها غبار الأهمال ويطلع عليها الناس جميعاً في فهم عميق ولا بد أن نبني المستقبل امتداداً لماضيها العظيم .

المقالة الثالثة



يوميات في المرافئ

«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا
وقبائل لنتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم»، إن الله عليم الخبير»
الحجرات ١٣

يوم ... قبل السفر:

أعلنت شركة الملاحة عن عشر رحلات حول البحر الأبيض المتوسط
تبدأ أولها أواخر مايو وأخرها في ٢٥ سبتمبر ١٩٧٢... فقلت في نفسي.
أجرب البحر في ٥ يوليو لمدة ١٥ يوما، وتم الحجز داعيا الله التوفيق للخير
أيما كان ووقما كان.

ما أن يعلم الاصدقاء والمعارف بالسفر إلى الخارج حتى يطلب أحدهم أو
إحدا من شراء أى شئ له. كاميرا. باروك. دواء للروماتيزم أو الصمغ دون.
أن يعرف الامكانيات المادية للمسافر، وقدرته على كثرة الاحمال أو اقتناعه
بها ولهذا ربما كان من الأوفق عدم إعلان السفر إذا خشي الإحراج.

اليوم الاول:

بندخل صالة جرك الركاب بالإسكندرية فيظن بعضهم أنني منتدب للعمل
به، ولا يكاد يصدق أني أحمل حقيبتي للسفر فينهض زميل بكتابة الأقرار

مبالغة في الحفاوة والثقة ثم أوقعه له ... وتم الاجراءات في سهولة ويسر
للمسافرين عامة .

يتأخر وصول الباخرة فننتظر ساعات وقد قيل في سبب ذلك أنها
اضطربت عند مرورها بقناة كورينثيا إذ لا يكاد يبقى شعير فراع عند مرور
الباخرة منها .

ومن الركاب الذين نزلوا منها سيدة نستقبلها أخرى على الرصيف بمناق
طويل حار ... لقد تصورت أن بحقيبة يدها شيئاً مخفيه ، وأن الحقيبة سبدل
بها حقيبة الأخرى فانتظرت ملياً ولكن حديثاً طويلاً جرى بينهما وأعطيت
الاوراق لنا بصعود الباخرة قبل أن ينقض الحديث ... ترى هل أستطيع أن
أمنى وظيفي ... أو أنها ستظلي على أسرى في رحلة لا تخلو من
الشوك ؟

الدرجة السياحية بالباخرة تبدو سيئة فمعجب بعض السيدات في السفينتين
الأزواج المنحرفين للدرجة الأولى لمن ويظنون هم بالتسريحة غير أني
أرى أن التكيف مع الأجواء الجديدة من حيث المأكل والنوم ومعدات القوم
جدير بأن يكسب القائم برحلة متعة التجديد ... وبعد نصف ساعة من
قيام الباخرة يبدأ دوار البحر شديداً على من لم يمر بوا البحر وكأنه اندير بأن
الرحلة جميعاً دوار ولكن الرحلات كالسكب قد لا يكون أن تقرأ هذه الرحلة
لنحكم على السكب جميعاً ...

اليوم الثاني

مضى هذا اليوم يسأل بعضهم بعضاً عن حاله بالأمس ، وتبدأ دائرة
التعارف في الانساع ، وفي لقاء التعارف تسألني سيدة عن مهتي فقلت : ماذا
تظنين ؟ قالت : طالب ... أجل الأمانى عندي أن أكون طالب علم حتى الوفاة

فرددت: هو كذلك . ولكن ماذا لو علم أنى مأمور بالجارك ؟ النتيجة ففسد الثقة بقوله فيما بعد وقد يظن بعض أنى فى مهمة رسمية للإبلاغ عن المهربين ، فلا ذكر صراحة مع التلطف الذى يكسب الأصدقاء .

ها هى الباخرة تنجى شمالا إلى جزيرة كريت أكبر الجزر اليونانية التى اشتهرت فى التاريخ بقصر العية أو اللابنت وشرعها مينوس .

اليوم الثالث :

ترسو الباخرة بميناء بيرية . على الرصيف المجاور للباخرة المصرية « سوريا » والنهر العربى يحوى جوانبها . شىء تغبط له بحى ، ونستقل السيارات إلى أتيننا العاصمة لزور أشهر آثارها معبد الإكربول حيث عديد من السباح من مختلف الجلسيات كل يحمل كتابا ليعرف تاريخ كل جزيرة ووصفها الملبى ، وملحق بالمعبد متحف يضم بعض التماثيل رمزا للحضارة الأثرية :



البشابات العفيفات

وفي العودة تقف السيارة عند محل لبيع المصنوعات للسياح من البائعين فيه
طلبة جامعيون من مصر، وظاهرة وجود المصريين والعرب عامة لافتة للنظر
في اليونان وثمة مقاه متجاورة كأنها خصصت لهم .

وكننا نود لو نعرف شيئا عن أخبار بلادنا ، وقد وجدنا جريدة «الأهرام»
فقط بمائ درمات «والأنوار» اللبنانية . . إنها الرابطة الثقافية الذي يشد العربي
في غربته إلى بلاده فضلا عن أنها ترد على بعض المزاعم التي يرددها العدو ،
ولقد وفادت لهذا لو تكثر الصحف العربية في بلدان أوروبا .

وبعد تجاوز ال انتهى بي ورفيقي من الرحلة إلى مقهى وما أن طلبنا الكوكاكولا
وأحضرها النادل حتى طلب ثمنها قبل أن نشرها . . تصرف فردى أم ظاهرة
لأنجدها في مصر حيث يجاس « الزيون » ساعات ثم هو الذي يطلب النادل
لثمنه الثمن ؟ . . ولعل للنادل اليوناني عذره أو وهمه بأننا سنقوم عن
المقهى خلسة .

ونعود إلى الباخرة لاثمس فرقا كبيرا بين بيرية وأحياء من الاسكندرية ،
أن الإحساس بعدم وجود فارق معرفة لها لذتها ، وليس شرطاً في الرحلات
أن ترى كل ما هو مغاير لما في بلدك . . هذه الفكرة تغيب عن الأذهان فتتغص
على بعض الأفراد حياتهم في الرحلات .

اليوم الرابع :

يزداد التألف بين رفاق الرحلة وإذا كان الشاعر العربي يقول :

أياربنا إنا غربان هاهنا وكل غرب للغريب نسيم

فإن صلة نسب الغربة قد ربطت كل فرد بالآخر وليس بجارته فقط إلا

ما قد نجد من نظرة غير من سيدة لأخرى ، أو رغبة غير معلنة في شراء الجديده الذي لا يتاح للآخر معرفة المحل ليشتريه منه .

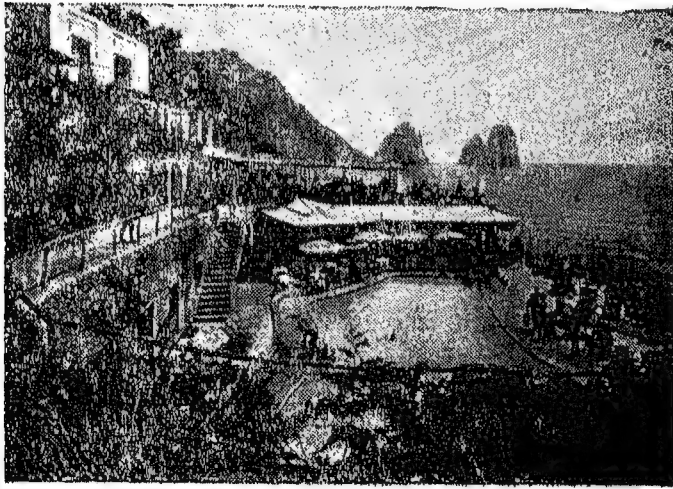
وقد تميزت الرحلة بكثرة الاطفال رغبة من الأمهات في احضارهن وأنهن والأطمئنان عليهم وعندى أن الطفل قلماً يدرك قيمة الرحلة وفلسفها بل أنها قد تضره إذا لم يركز الآباء على المعايير الصارخه ويان العلاج الصحيح لها ، فالشاب الذي يرقص مع صاحبه بالباخرة وأثر الشهوة في عينيه ولسات يديه صورة سيئة للطفل الناظر إليه إذا لم تذكره بأن الرقص المبذول يدل على فراغ نفسى وشعور بالغشاع .

اليوم الخامس :

تصل الباخرة نابولي ^(١) وهى تقع على خليج نابولي الجليل ومنها قصدنا جزيرة كابرى بركب آخر حيث المدة ساعة وقليل يطالعك في البندى بركان فيزوف أو vesuvio الذى تشتهر الأراضى المجاورة له بالخصب للمواد المنصهرة التى تخرج منه .

يقف المراكب فترة وجيزة في سورنتو Sorrento جنوباً وهى شبه جزيرة صخرية ممتدة من جبال ابنين وقد اقتطعت منها كابرى بارتفاع ٥٦٦ متر ^(٢) منظر رائع للانطباعة الأولى خاصة .

- (١) أسس هذه المدينة منذ قديم الأريق وأسموها نيا بوليس Neapolis أى المدينة الجديدة ، والراجح أنه خرف الاسم إلى نيا بولى - حيث تنتهى الاسماء عند الايطاليين بحرف متحرك ... ثم نابولى .
- (٢) مشاهدات سائح فى الممالك الأوربية ص ٧ - عبد الوهاب أبو العين ، ط . الحديثة بالقاهرة .



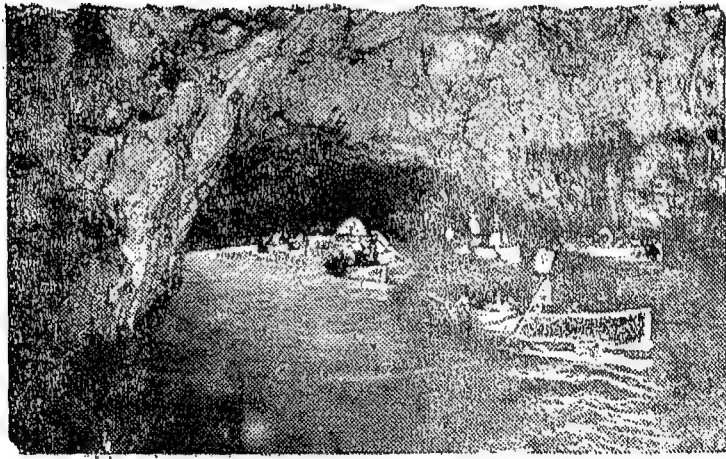
كابري

ثم اتجه المراكب الى المغارة الزرقاء GROTTA AZZURRA وهي مغارة
حائية واطنة الارتفاع عند المدخل حتى لا يغطى الراكب في قورب صغير أن
يجلس أرضاً بدلاً من مقعد القارب ثم يتصب طويلاً بعد المدخل وفيه تبدو
الماء صافية الزرقاء جداً، طولها نحو ١٧٥ قدماً وعرضها نحو عشرة أقدام^(١).

اليوم السادس :

انغمسية كلاً بالباخرة ، بعضنا يتخذت في شئول عادية ، وقد سمعت أن مغارة
لينان أروع من تلك في كابري ، الأمواج تعلو وتهبط فتلجأ بعض السيدات
والأطفال إلى ترانيم دينية عملاً بما نسب إلى السيد المسيح غنوا ورقنوا ولكن
الباخرة كأنها تردد طرباً فتزداد اهتزازاً ونسمع من يقول إذا كان تمايل الباخرة

(١) : (١) بجولة في ربوع أوروبا بين مصر وأيسلندة ص ٢٤ - محمد ثابت ،
ط . الرحمانية بمصر .



المغارة الزرقاء

من المقدمة والمؤخرة فلا خوف ، أما إذا كانت على الجانبين يمتدة ويسرة قربها
يستر ، وفي أمثالنا : « أعطني عمراً وارمني البحر » ولكن هذا المثل قلبا
ينخطر بالبال في وسط البحر حقيقة .

اليوم السابع :

ها هي مرسيليا . بعد زيارة لكنيسة الحارسه . . ويبدو أنه لا أثر ديليا
له قيمتها بالمدينة - يتجه الفوج إلى المحلات العامة للشراء ، لقد كان في تصور
بعض أرب المحلات تهتز كما كانت الباخرة أمس . . الأسعار تبدو مرتفعة
ولكن لا يشك أحد في جودتها إذن لا بأس من الشراء القليل .
نظرات علوية عابرة على الكورنيش . الجو ليس غريباً تماماً ، فهو يشبه
اسفانلى أو محطة رشدى بالاسكندرية في بعض الأحيان ، وهو في نظر بعض
يشبه بلطيم .

وعند عودتى إلى الماخرة أتوسم في بعض المارة معرفتهم اللغة العربية
فأسألهم عن الطريق إليها فيجيبون بعض بحرية مكسرة . . إنهم جزائريون

عرب ولكنهم لا يفهمون حتى ولعلمهم يصنفون لهجتي كما وصفت لهجتهم ، فألحظ رجلا زنجي البشرة وأكلمه الانجليزية ، ولكنه لا يعرفها فيصططعبنى إلى بار قريب فإذا فتاة به تقاطع في صحيفته في باب بها باسم « أخبسا والميناء » فذهرف أين ترسو الباخرة وتخبرني ويتطوع الزنجي أن يوصلنى بهرته ، وركبت معه .. خلق حميد دعانى أن أعرف جنسيته وقد حسبت أنه من جنوب أفريقيا ولكنه قال : فرنسى ولد بفرنسا ثم هو يسألنى : أأمر بكى أنت ؟ فقلت : مصرى ، وفي ذهنى قد يختلف لون الناس ولسانهم ويبقى الإنسان فقيم إذن يصحارب الناس من أجل عصبية ضيقة ؟

وعند الميناء ألتقى بشاب مصرى يتدرب على أعمال الجمارك بفرنسا فيخبرنى أنهم يأخذون بالإقرار الشفهي وأن في مطار باريس باين يدخل من أحدهما متى لا يحمل شيئا يستحق الضريبة ، ومن الآخر من يخضع لضرائب^(١) وأسأله ماذا يريد من مصر فيرد : أن تبلغ سلامى إلى أقاربى . الرابطة الأسرية قلما يوهن من عراها بعد المسافة ، بل وعلى رصيف الميناء تم خطبة شاب مصرى يدرس الدكتوراه في فرنسا بقناة من الرحلة . جميل ألا تذوب الشخصية المصرية بتقاليد الأصيل في بلد أجنبى فيه كثير من مغريات المجلس . وبرغم أن الإنسان لا يمكنه إنكار التقدم الحضارى لدول أوربا عامة فإن التفاوت بين الناس ملحوظ ، ففي مرسيليا من يمد يد السؤال ، ومن يعزف بالأكورديون يقصد التسول ، وقد علمنا أن أسماء هؤلاء المتسولين مسجلة بسجلات الحكومة ، وبعضهم من مشوهى الحرب لا يشار كهم في هذه المهنة دخيل والا تعرض لطاردة السلطات المختصة ، والفرق بين التسول الفرنسى وبين زميله فى مصر نظافة الملبس .

(١) أتيج ذلك النظام في مطار القاهرة الجديد فيها بعد .

ومن المناظر التي تشد الانتباه في مرسيليا بينما نراه مألوفا في قرى مصر
حمار أسود - لهله الوحيد - استغله صاحبه اعرض البضائع فوقه في شارع
كبير أمام محل Baze لقد حلت السيارة محل الخمر ولكنك تشاهد السيارة فلا
تغير عليك ما يشبه شكل الحمار إذ يقف كأنه مغلوب على أمره ، عينه على
الأرض إن شعور الشفقة قد يغلب الإنسان في هذه اللحظة .

اليوم الثامن (جنوا) :

في الصباح تراكى الباخرة في جنوا وهي مدينة تقع على خليج جنوا
جنوبي جبال ابنين The Apennines وتمتد ٢٥ ميلا على ساحل البحر الأبيض
المتوسط فهي تدخل في نطاق الريفييرا الإيطالي .

وهي تمثل الرأس الجنوبي للمثلث الإيطالي المصنعي حيث يمثل الرأسين
الآخرين ميلانو وتورينو ورغم شهرتها ببعض الصناعات كالآلات الهندسية
والصبايون والمنسوجات فإن السياحة تعتبر صناعة هامة تنطلق من جنوا وهي
أجمل في نظري من نابولي وأكثر عمارة بالفنون ، عدد سكانها نحو تسعمائة
ألف وبها شوارع ضيقة ترجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي .

إن موعدنا شاطئ بورثوفينو وهي مصيف عالمي على بعد ساعة وربع من
جنوا بالسيارة السياحية . في الطريق تشاهد ميدانا به أوبرا ، وتمثال
غاريبا لدى (١٨٠٧ - ١٨٨٢ م) ، نافورة ، البورصة . هذا ميدان
آخر فيه تمثال يمجّد الذين سقطوا في الحرب العالمية ، الشعلة المضئئة أمامها
حديقة نقش الزرع فيها بواخر تحية لكوالمبس .

بعد جنوا مدينة « دورباست » حيث شارع قديم من العهد الروماني ،
وأسفل بخط سكة حديد من بينزا إلى روما .

تم مدينة بيرلي pierli ويذكر هذا الاسم على بعض مصنوعات المطاط كاللمعارة وإطارات السيارات ، ثم خلع الجثة ورمى شجرة « سيرس » وتسمى الابدية إذ تعمر بمسافة سنة وهي تشبه الخنوبير .
ثم مدينة جديدة كان الحلفاء قد دمروها في الحرب العالمية الثانية ولم يبق من بورتها القديمة غير ثلاثة (١) .

ونلاحظ أن بجوانب التلال مدرجات غرست أشجاراً ، القسطل على المنحدرات ذات الانخفاض الكبير ، والأشجار المخروطية على المنحدرات المرتفعة عنها .

هناك مدرسة للملاحة في مكان حيث المياه عميقة بالبحر ومحطة تليفزيون .
ويسمى البلد « كازاموليا » أي بلد الساعات لأن أزواجهن يقضون حياتهم في البحر وقد ذكر المرشد أنه وزع في احتفال أقيم في آخر مارس ١٩٧٢ نحو خمسمائة كيلو سمك مجالاً . الجبال هنا تسمى ابني كما تطلق بالإيطالية .
ثم مدينة القديسة مارجريت .

ومن الآثار التاريخية على الطريق قصر الملك فرنسوا الأول سنة ١٥٢٥ بعد أن خسر المعركة مع الأسبان .

وقد مررنا بشاطئ آخر يدعى « ماراجي » ونلاحظ الهدوء والوداعة صمة غالبية على هذا الشاطئ وبور توفينو وربما كان السبب النظرة على البعد .
أو بعدهما حقيقة عن المدن العامرة بالسكان .

(١) شبيه بهذا كنيسة « القيصر فيللم » في برلين الغربية حيث تلف هذه الكنيسة وسط المباني المعاصرة الأنيقة تحمل آثار التنايل والتهيران التي ألقتها أساطيل الحلفاء الجوية خلال الحرب العالمية الثانية . .

الأهرام في ٢٣ / ٧ / ١٩٧٤ .

اليوم التاسع (نابولي) :

تصبه الباخرة جنوباً بحذاء الساحل الإيطالي إلى نابولي حتى إذا مارست بالبناء كانت الرغبة ملحة في التجول بالمدينة فليس ثمة زجاج محدة لزيارة ماء الملابس خفيفة إذ أن الصيف يتميز بالحرارة طول امتداد الساحل . وفي نابولي ٢٤ مئوية .

وبرغم أننا نقارب من منتصف يوليو فإن المطر يسقط بغزارة الشتاء نحو ساعة مع شيء من البرودة لقد ضايق هذا البعض ولكنني سعدت به لغرابته بالنسبة لحو مصر .

الطرق معبدة ليس فيها حفر تكون مستنقعات . واللافت للنظر أن الإيطاليين اشتهروا بإنشاء الطرق المعبدة منذ عهد الرومان ولا يخفى أن تعبيدها بجودة مما يخدم السيارات التي تشتهر بها إيطاليا (١) .

وقد قيل أنه ٨٥٪ من الإيطاليين يملكون سيارات خاصة وبما يتصل بهذا العدد أننا لاحظنا احترام قادة السيارات للمشاة . إذ تقف السيارة على بعد أمتار لتتيح للمشاة أن يعبروا الطوارق في أمن . وقد ساعدت الاتفاق على تخفيف حدة المرور بوجه عام .

إن جو المدينة «المادي» - إن صح التعبير - يوحي الزائر أول مرة بمكانها الضخمة أنها مدينة تجارية، وهي كذلك إذ يوجد بها مصانع والآلات الهندسية

(١) ومنها «فيات» اختصاراً لأسم المصنع الإيطالية .

والجلود والقطنيات والجوت وإعداد المواد الغذائية كحب الخضر والبطيخ
ومصناعة المكرونة وإستخراج الزيتون فضلاً عن مصانع تكرير البترول
وأحواض لبناء السفن .

اليوم العاشر :

لقد بدأ الركاب يلبسون الجديد كأنما لللاطم ثمان إلى شهادة الغير بحسن
اختيارهم وتحاشيا لدفع الضريبة الجمركية عنها عند العودة إلى مصر .

حديث ذو شجون عن انطباعات المشاهد إلى نابولي . قد يراها
البعض عادية أو يتوقع الملل من البقاء فيها كثيراً . ويراهم آخرون أنها
الحياة .

لقد حكى بعض الرفاق ما شاهدوه من مناظر مؤذية وتدل على الفقر في
بعض الأحياء من نابولي ويتساءلون لماذا لم تلغ هذه المناظر صورياً
فوتوغرافية كما يفعل السائحون عند قدومهم مصر إذ يعمدون إلى التقاط
المناظر غير المسقيمة .

وعندى أن العزبي إذ يلتقط أحسن المناظر فلكي يعرضها في نفسه .
أما السائح الذي يلتقط أسوأ المناظر في بلادنا قائماً بمعززة هوائية أو
أقل استعمارية .

ويشفي ألا نعيب على سائح التقاط منظر مؤذ مادام لم نعب على أنفسنا
إلحاحاً . فما نراه من مناظر في أوروبا وإتبان يوشك أن يضيع بهائه وجماله
إذا غطاه غبار النسيان أو الإهمال .

والمناطق الجبلية المزروعة والمنسقة في إيطاليا مثلاً تثير بهر الصائغ في المرة الأولى خاصة غير أننا نظن أن الإيطالي في زيارته لمصر قد يهره انبساطاً طبعها وعندنا من الجبال مثلاً المقطم وينبغي العناية به وبالمناطق السياحية في طول البلاد وعرضها .

وأم من التنظيم السياحي تغيير السلوك البشري بما يدعو إلى الإعجاب والاحترام للفرد والجماعة على السواء في الداخل والخارج .

لقد رأينا المحلات الكبيرة مثل ستاندا وأويم في إيطاليا . وباز في مارسيليا نقوم على اختيار المشتري للمشتريات ثم للتوجه بها إلى الخزينة للدفع حيث يستغنى من البائع في أكثر الأحيان .

الباحرة لاتزال تشق طريقها وأتمثل بيت الشاعر :

تلك الطبيعة قف بها ياسارى حتى أريك بديع صنع البارى

الله أكبر . لقد خلقت الجمال يا إلهى لتنتطع نفوس الناس به فلم بلغت إليه أناس وانهمروا على أنفسهم في ظلمة مقيمة ليشدوا غيرهم إلى هاروة الرذيلة غيبة ونميمة .

قبل الثامنة صباحاً ، شمس ، طالعة من جهة وغيوم من جهة أخرى ، والمطر ينزل رذاذاً وقوس قزح كأنه قفز من سطح البيوت على جزيرة بمراى البهر ليلتقى طرفه الآخر بالبحر ... وتنتهى الحياة في الدنيا ، وفي وقت صلاة الجمعة يؤدى المصلون الصلاة جماعة على ظهر الباحرة بعد خطبة قصيرة .

اليوم ١٢ يوليو وهو يوافق العيد القومي لفرنسا يحتفل الفرنسيون في الباحرة به بينما احتفل المصريون بطريقهم الخاصة وكانوا بين الحين والآخر

يقولون Vive La France أى تمجيداً لفرنسا ولا أحد من الفرنسيين يسميهم
ولكنها روح المحبة بين البلدين تملئ على أهل مصر سلوكهم .

اليوم الحادى عشر (بيرة) :

واضحت الباخرة سيرها عبر البحر مارة بمضيق مسينا ثم جنوب اليونان
مارة بقناة كورنثيا حيث العمق ٢٤ قدماً وأعلى موضع ٢٢ قدماً . وتذكر
المذبة بالباخرة أن أول يخت مر بالقناة كان للملك جورج واليوم نرى أن
٢١ أبريل ١٩٦٧ هو تاريخ الحاضر الذى تعيشه اليونان معلن على الجدران (١)

مررنا بالقناة من الساعة ٦:٤٥ ص إلى ٧:٣٠ ص بحسب من العمر بحق .
تصل الباخرة ميناء بيرة لقد قرر القبطان إجراء إصلاح فى المحرك . ولهذا
ستمكث بالرصيف اليونانى يومين وليلة . أتوجه لاستطلاع العمل بمحرك

(١) أعلنت الجمهورية رسمياً فى ١٩٧٣/٧/٢٩ برئاسة بابا دوبلوس حتى وقع
الانقلاب العسكرى فى ١٩٧٣/١١/٢٥ وأعلن أن الجنرال فيدون جيز بكس
قولى رئاسة الجمهورية . أما ٢١ أبريل ١٩٦٧ فهو يوم نهج بعض الضباط فى
الاضطلة بحكومة كانيالوبولوس وأعلنوا أن هدفهم منسج سقوط البلاد فى
أيدي الشيوعيين وألقوا على الملك قسطنطين وألقوا دسوز ١٩٥٢ ، وقد
حاول الملك فى ١٩٦٧/١٢/١٣ القيام بانقلاب مضاد ضد الضباط ففشل الأمر
الذى اضطره إلى الفرار من أثينا إلى إيطاليا فى اليوم التالي بعد أن أسندت
الحكومة إلى بابا دوبلوس ثم ما لبثت الأمور أن تطورت وأعيد الحكم المدني
فى اليونان فى يوليو ١٩٧٤ .

اليونان على قدر الامكان ، نظام التخليص الجركى يقوم به الجمالون . والذي يقوم بتفتيش حقالب الركاب controler خريج كلية التجارة . وقد لاحظت وجود سيدة تقوم بالكشف وعملت أنها . بدك زميل باجازه إذ يقوم بمطابقة التفتيش المذكور فقط . والغريب أنى رأيت أحد هؤلاء العاملين يفتش حقيبة يد لسيدة الأمر الذى لا يحدث بالحدارك فى مصر .

جولة قصيرة بالمحلات اشترت صفيحة زيت زيتون صغيرة . كان لابد أن اشترى شيئا من متع اليونان خاصة فلم أجد ما يجذبنى مثل عروسة «غير بشرية» وتمثال فينوس . وكارت بوسناك للاكربول .

ولابس أن نركب المترو من يديه إلى آخر محطة وتدعى كفسيان — بنون خفيفة النطق — وتسغرق المسافة نحو ساعة ثم فيها محطات كثيرة منها : تزيان (بها آثار) — أمونيا — فثكوريا — نيا أبونيا — ايراكليون (وهي غير ايراكليون الميناء) — أما روسيان (بها بيوت أنشأتها جمعية اليونانيين القيين نزحوا من مصر) .

من بعيد لاحظت شجر الزيتون فى بعض المناطق بكثرة تدعى بالاهنام به . وقد علمت أن بعض الاغاني اليونانية تنوه به كـ لايدوجيل بدلى وجبل آخر يدعى دواياليو . ومعناها باليونانية القسم — بالكسر — .

حتى إذا ما انتهى المترو إلى موقفه الأخير ينزل الركاب ليسلموا نذاكرم لعامل المحطة . وقد لاحظت أن المفتش لم يراجع كل العذاكر بالمترو وإنما اكتفى بالمراجعة اختيارا .

وفى كفسيان محل كبير «أخوان فارسو» بدأ صغير البيع اللبن سنة ١٩٨٢م

وتنضم حجمه فأصبح كديليس بالأسكندرية—وبداخله حديقة منسقة وفي
كنسيان حديقة روعة في النظام والنظافة . وقد ذكرت على بعض الأشجار
أسمائها ليزداد المشاهد علم . غير أني لم الحظ دورات مياه عامة فالمضطر عليه
بالمقامي وذلك لنقص المياه في اليونان ... الأمر الذي طالب بعض من أجله
بإنشاء دورات المياه في الشوارع خدمة للجانب .

عودة إلى الباخرة لأطمئن إلى زملاء الرحلة . وأتناول وجبة خفيفة
وأثناء لم تمطر في يريه كما أمطرت رذاذا في كنسيان فيأبني الجواب نقيار
لقد منعني المطر أن أبقى فيها طويلا برغم طيب جوها في الصيف . أما في
الشتاء فهي شديدة البرودة .

تكلمة الجولة في يريه حتى الثانية صباحا وبرغم هذه الساعة المتأخرة كان
العاكسيات كثيرة لنقل الخارجين من البارات أو الحفلات أو السائرين بلا هدف
حتى يجمعهم السهارة .

من بعيد صاحب جراج لا أكاد أرى أحدا غيره وقد اختلطت على مظالم
البلدية ... أقرب منه لأسماله بالإنجليزية فلا يجهي . إنه لا يعرفها : فقلت له .
تولونيوا وأقصد به الجرك باليونانية . فلا يعرف لقد أخطأت في نطق الكلمة
ولم يكن عنده وقت ليعرف أن الغريب في هذه الساعة لا يسأل إلا عن مكانه
الباخر . أن صيغة الكلمة تولونيوا . فلما ذكرتها وجدت من يرشدني .

اليوم الثاني عشر :

في هذا اليوم توجهنا إلى مصيف «سوفيون» وهو يبعد عن يريه نحو
ثمانين كم قطعنا السيارة في ساعة ونصف تقريبا . حيث استمتعنا بالمباحة

هل مياهه الصافية بلا عمق كبير. ويبدو أنه لبعده لا يؤمنه غير السباح وبعض
ذوى اليسار من اليونانيين .

وقد ألتقيتني أضرب صفحا عن تدوين ما نقوله المرشدة بعد أن بدأت
حديثها بأن يريه ثالث ميناء في البحر الأبيض المتوسط بعد مرسلينا وجنوة
فعلا صوت الرحلة . الاسكندرية فقالت معهم: نعم الاسكندرية .
هل هو نسيان منها أو النزعة القومية تجعلها تخطئ؟ المهم أنها أفقدتنا الفتحة
بعض كلامها في موقعها الإرشادي .

لقد مررنا بشواطئ عديدة لا تتمتع بالرمال كما تتمتع شواطئنا وفرة
وجالا . وأكثر ما يكون استلقاء المستجم أو المستجم على حصي أو صخر
بلازحام .

ويلاحظ أن المباني اليونانية بوجه عام في مناطق معينة قليلة الارتفاع وقد
قرأ لي من يعرف اليونانية في صحيفة أسبوعية أنه في المدينة ستغطي واجهات
البيوت بالالمونيوم .

الساعة الرابعة مساء موعد إبحار الباخرة . وحديث عن انطباعات الرحلة
وكيف تقدمت اليونان في سنوات قليلة تقدماً ملموساً ويبدو أنها أفادت من
ثورة ٢٣ يوليو في مصر من بعض الوجوه مع الاحتفاظ بصداقة دول غرب
أوروبا وأمريكا . وأرتفع فيها مستوى المعيشة . فالخلاق يتقاضى مثلاً ثلاثين
درجئة أي أربعة أضعاف ما يتقاضاه زميله بمصر كما حدثني يوناني أحيل إلى
المعاش وهو يعمل في مصر . وعند زيارته لليونان لفت نظره صكثرة بناء
الكنائس بما لا يعده بناء المدارس مثلاً معاً لذلك بأن رجال الدين يتقاضون

من ثبات عالية من مراسم الزواج والجنائز . ولهذا فقد كثر عددهم قلت في نفسى : خير من الإلحاد . وأضاف أن الدولة تهتم بالطفولة عناية عظيمة . فأنجبه ذهني إلى مآربه من كثرة المقاعد والاراجيح على الكورنيش . وأن كانه شاركه في الجلوس عليها والاهتزاز بها الكبار .

اليوم الثالث عشر :

تواصل الباخرة سيرها عبر جزر اليونان . وفي نحو الساعة السابعة صباحا تمر بجزيرة رودس . وقد قيل لنا أن أكثرها فتادق حيث المأتمون كثير . وأجرة الليلة ٤٠ دولارا أمريكيا . أي تزيد عن مشرين جنينا مصريا . البحر هادئ وفي هدوئه جمال . وفي ثورته أيضا ، لأنه صادق في التعبير عن الجو المحيط به . وهكذا شأن كل كبير وعظيم ... كالبحر ... تشبهه يذكره الناس لاتساع لاهدود ... في الخير والحب ليس غير .

اليوم الرابع عشر : (بيروت)

تصل باخرتنا بيروت بجوار الباخرة المصرية « سوريا » جولة حرة في أنحاء المدينة حسبما يسمح الوقت ، لقد عنيت حقيقة بسوق العسكيت ، في لبنان كعنت كثيرة ، وصحفت وفيرة لانجدها في مصر ، مع أن التجارب العسكرية بين البلاد العربية : ضرورة لزيادة المعرفة وحمل النفس وتعميق الوعي . أمام العدو خاصة .

وبعد نحو ساعتين كانت في انتظارنا سيارة سياحة لزيارة مقبرة جفيتنا ... بعض رفاق الرحلة تخلفوا عن مواعدها انشغالا بسوق البضائع فلبان مغربا لأصناف العديدة المستوردة من مختلف البلدان .

أما لبنان فيصدر الحرير والقداكه والزيتون .

الساعة تقرب من الواحدة ظهراً كان لابد أن تتحرك السيارة ، لتحديثنا المرشدة أن بيروت هي كلمة محرفة عن بيروتا بالأرامية ومعناها شجرة العنبر وهناك شجر الموز وشجر الزيتون «شمال لبنان» ونصحبها من السكان مليون ونصف تقريباً من عدد سكان لبنان البالغ نحو ثلاثة ملايين ثم تقسمنا من تقسيمه الإداري وحالة الفراغة به إذ كانوا يعملون إلى لبنان للحصول على خشب شجر الأرز لمنع المراكب منه .

وقد استوطن المهاجرون الأرمن لبنان وحملوا هويته وعملوا معاملة اللبنانيين . ويقوم الشعب بانتخاب ٩٩ نائباً، والنواب ينتخبون رئيس الجمهورية لست سنوات ويشترط أن يكون مسيحياً مارونياً^(١) ورئيس الوزراء لابد أن يكون مسلماً سنياً ، أما رئيس المجلس فيسلم شيعي .

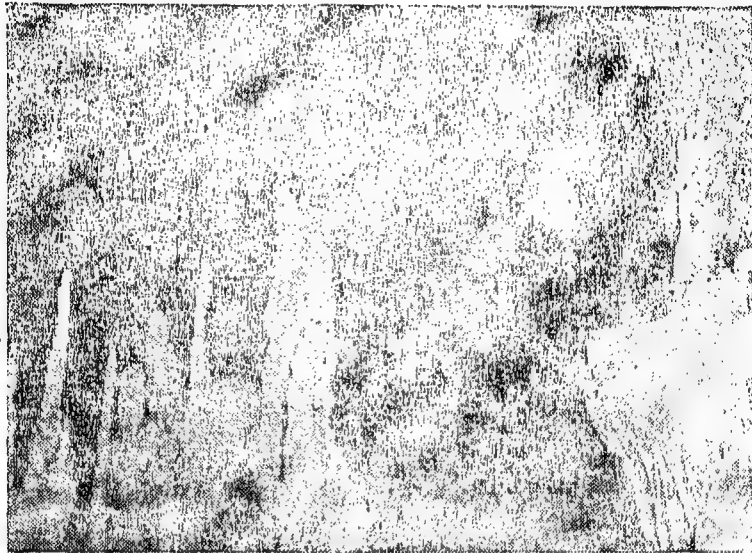
هناك أنابيب بترو من السعودية إلى صيدا ، ومن كركوك إلى طرابلس

للشام ...

(١) شهد لبنان حرباً أهلية في أبريل ١٩٧٥ سالت فيها دماء . وخربت الديار والمخيلات .. على مدى شهور طويلة ، مما حمل بعضهم على المطالبة باستقالة رئيس الجمهورية « سليمان فرنجية » ورغم انتخاب غيره فقد أرجأ فرنجية استقالته . وهالت بعض الأقلام موقفه بأنه نتيجة لاتفاق مشبوه بتصفية المقاومة الفلسطينية ، وتقسيم لبنان أو أنه تعبى عن مصالح طائفة تتصور أن بقاءها لا يكون الا باذلال شعب لبنان ليزداد الأغنياء غنى والفقراء فقراً ..
مقاله عبد المعصم الصاوي .. الجمهورية في ٢٠ / ٥ / ١٩٧٦ .

لا تزال المرشدة تذكر أن لبنان استقل سنة ١٩٤٣ م بعد ٢٥ سنة من حكم الترك . وفي الطريق نرى مصانع الألومنيوم والكروتون وغيرها ودير للمسيح الملك Christ roi على جبل . نمر بنهر الكلب وتسمى بهذا الاسم فيما يحكي إذ كان فيه كلب عظيم إذا وجد عدوا نبح حتى يسمع نباحه في قفز من ... ومن الملاحظ أن مياه هذا النهر جافة فيما رأيناها تحت جسر قريتنا من الجبل .

أما جمعيتنا فهي كلمة آرامية معناها « جزيرة المياه » تبعد عن بيروت شمالا نحو



« غارة جمعيتنا » لبنان

١٨ لك بها آثار مياه من جبل بعيد ، وفي كل سنة تغلوا المياه من ذوبان الجليد ، اكتشفت المغارة العليا فوق المغارة المائية من عشر سنوات فقط وافتتحها الرئيس شارل حلو سنة ١٩٦٨ .

وكيف التفريق لتصل إلى المغارة العليا... منظر يري ولا يسمع أو يقرأ عنه،
رومه في الجمال، الصبحور تكونت من المياه أشكالاً مختلفاً حسب أحاسيس
الرائي فهذا شكل معبد وليس مبدأ في الحقيقة، وهذا منظر نستطيع أن نصفه
بأنه تمثال امرأة بينما قد يراه غيرك شيئاً آخر وكذلك وجه أبي الهول، منظر
آخر كقطعة سمك بكلاء، وثان كرأس أسد بأنياه.

والقريب المصودة إلى ذهن القارئ أشير عليه بأن يطوي ورقة نصفين بعد
أن يجمع في منتصفها نقطة حبر. المنظر الناتج قد يراه البعض زرافة أو شجرة،
أشكال مختلفة تلقائية أو عفوية كذلك الشأن في مغارة جديما ومن العمل بعد
سنوات بعدة قادمة أن تغير مناظرها بفعل المياه نتيجة ترسب الأملاح المذابة
في صورة بلورية تتراكم طبقة فوق أخرى وبذلك يتغير الشكل. قدرة الله،
لقد سمعت من يراها وقد أخذ بالمنظر يقول: الله أكبر، حكمتك يارب.. لا بد
أن تعرف الله مادمت إنساناً ذا مشاعر.

وعلى كثة الزائرين فإن التنفس فيها طبيعي ومريح، ومنوع للداخلين
أبحرت الباخرة في نحو السادسة مساءً وفي أمتية البعض لو استمر أياماً في لبنان.
اليوم الأخير:

ها هي باخرتنا تصل إلى ميناء الاسكندرية قبل وصول الباخرة «سوريا»
وإن كانت الأخيرة قد بدأت رحلتها من بيروت قبل باخرتنا «سفتيا» بساعات
ومرجع هذا أن «سوريا» اتخذت طريقها في البحر غير طريق سيدنيا بعيداً
عن إسرائيل.

وقد حدث أن خرجت مجموعة من الرحلة بسرعة كأن لم يجر على حقائبهم
فحص، وكل يحمل مع هداياه ذكريات تختلف في درجة حلاوتها أو عنائتها عن
الآخر، أما أنا فقد أخذ زميل الجمارك جواز السفر ليثبت به قيمة الهدايا^(١)
وكانه يوقع في أو يوجاف بمناقب عزيز.. لو خرجت شاكرام.

(١) كالتعليقات في ذلك الوقت.

المقالة الرابعة

في مهبط الوحي

« إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها، وإنى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة وإنى دعوت في صاعها ومدحا بمغلي مادما به إبراهيم لأهل مكة »

حديث شريف

يوم ٠٠ قبل السفر :

مقدنا العزم على أداء العمرة في رمضان، المجموعة التي أدتها من قبل معي هي تقريرا ذلك أن الذكرى الطيبة تدفع الإنسان إلى استعادتها ومعايشتها ما وجد إلى ذلك سبيلا وكلنا يرجو ما قال رسول الله:

« العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » .

ننجه إلى شركة الطيران للتحجز فيخبرنا العامل المختص ألا مقاعد خالية غير غد (١٦ من رمضان ١٣٩٢ ، ٢٣ أكتوبر ١٩٧٢) أو يوم الوقفة أي بعد نصف شهر تقريبا فلنختر الغد فخير البر ما جله .

اليوم الأول والثاني :

الظروف ميسرة تماما ، وقد سمح لنا بحويل ٨٨ جنهما مصريا إلى ١٣٠ دولار .

نحزم حقائبنا وقد حوت الجديد من الملابس إلى مطار القاهرة حيث قررنا السفر بعد منتصف الليل بإقيل « الساعة ١٢٠٢ » .

في الطريق : الطائفة تقل أناسا محرمين وآخرين رأوا أن تبدأ زيارتهم إلى المدينة أولا ، وقد كتبت من هؤلاء لمجرد التغيير إذ سبق في رحلتى الأولى أن أحرمت للتوجه إلى مكة قبل المدينة ولكن ألزم نفسي معرفة آبار على أذى الحليفة ولم أكن زرتها من قبل كميات للحرام .

بينما رأى بعض البدء بالمدينة ربما انتهزا لخص الفنادق قبل ليلة القدر (٢٧ من رمضان) حيث قيل أن الاسمار ترتفع بهذه المناسبة .

وأيا كان السبب فسوان البدء باحداها قبل الأخرى وإن كان منطق التاريخ أن بدأ الإسلام بمكة .. غربيا .

وفي الساعة ١٥ : ٢ صباحا يعان المضيف أن الطائفة سمعوا البحر الأحمر بعد نحو عشر دقائق ونستطيع الاحرام حيث الميقات رابع .

جدة : ها هي مطار جدة نهبط إليه الساعة ٢٢ : ٢٥ صباحا لقد استكمل بناءه ولم يكن هكذا عامنا قبل الماضي .

صنوف تقف لاتمام الاجراءات ، وأحس أن المحرمين أولى بالتقدمة ، فهم في تجردهم إذا خلصت النية - أقرب إلى الله من غيرهم .

الوقت قبل الفجر فتوجه إلى مسجد قريب من المطار ، وأنا أحب أن تنشأ دور العبادة قريبة من محطات السكك الحديدية ، والموانئ حيث تروى البواخر ، والمطارات فهي تعطى المظهر الدينى المشرق للبلد .

ويؤذن المؤذن في صوت قوى أخذ الأذان الشمرعى دون تزييد مثلما نراه في بعض المساجد بمصر ، إذ المفروض أن الصلاة على النبي يقوم بها السامع

بعد انتهاء المؤذن ، لأن تأخرى بالأذان (١) ..

وبعد أن تفرغ من الصلاة أدع حقيقيين لي سمع بعض المصحب ، وأنجه إلى داخل جدة في جملة قصيرة .

تبدو الشوارع متسعة وليس هناك ما يعوق حركة المرور ، فلما قليل وأكثر الجواثيت مظلة في الصباح الباكر ، في الطريق طلبة بالمدارس الابتدائية والمتوسطة يلبسون جلبابا أبيض .

زى الطالبات : أما الطالبات فيلبسن زيا إلى القدم أزرق أو كحلي اللون وخمارا أسود ، ويريا أبيض وحذاء أسود ، ولولا ما يحملنه من حقائب الكتب السوداء الموحدة الشكل ، ما أدركت أنهن طالبات ، وزيادة في التحفظ كثير ، أما نقلهن السيارات الخاصة أو بالأجرة .

وعندما الزى تربي عليه الفتاة العربية منذ الصغر إذ لا تنفي منه تلميزة التعليم الابتدائي .

الحقيقة لم أستطع بيني وبين نفسي انقادا لهذا الوضع ، صحيح أن الشريعة الإسلامية رخصت في ظهور الوجه ، والكفين ، ولكن هذه حياة القوم ارتاحوا لها ولا بأس من إغلاق أبواب الفتنة .. المهم ظاهرا وباطنا (٢) .

(١) تنتهي صيغة الأذان كما أراه في النوم عبد الله بن زيد الأنصاري ومهرين الخطاب بقول « لا اله الا الله » وزاد بسلام في الصباح « الصلاة خير مسكن للنوم » فأقرها رسول الله . الطبقات الكبرى ٨٤٧/٢ .

(٢) لعل من الأمثلة الظاهرة على التوفيق بين مدينة العصر في النصف الثاني من القرن العشرين وتطبيق الشريعة الإسلامية في السعودية أنه سمح =

الجو شديد الحرارة فكنا نستريح بالمسجد وقد عمات فيه مصارح أعطاه
لرطوبيا مسجدا في انتظار عربة إلى المدينة .

الابتهلاء وسكينة النفس : هاجى العربى بهمسد الاتفاق على ٢٥ ريالاً لم ينزل
عنها السائق ولو قليلاً للوصول بنا إلى المدينة ، مفاجأة أن افتقد إحدى
حقيقتي فلا أجد لها لقد تركها زهيلي خارج المطار وهذه الثقة مثل ألا شيء
بضيق في هذه البلاد ، فتذكرت تجربة لي مثل تلك في رحلة إلى ليبيا منذ سنتين ،
ففي ميناء بنغازي علمنا أنه ممنوع على الركاب الخروج بدولارات أمريكية
فأودعتها حقيبة ملابس ، وخرجت أتجول بالميناء وعدت وقد لحظت أن الحقيبة
فتحت عنوة وسرقت الدولارات فأسفت أسفا بالغوا إن حدث الله أن للباخرة
تكفيني المأكل والمشرب والنوم حتى العودة إلى مصر . ولكن في هذه المرة
وقية الحقيبة الضالعة وما تحويه أضعاف الدولارات المسروقة أحس بالسكينة
تملاً نفسي أحس بقوة الحكمة الإلهية في الابهلاء بنقص الأموال ، وأن الحقيبة
لم تفتح مني تماماً . . صحيح أنها ليست بين يدي الآن وربما إلى أن يتقضى
العمر ولكن قيمتها المعنوية تنتظرني في اليوم الآخر حتماً . . بعض ذنوبي
سترتد إلى سارق الحقيبة أو سأخذ بعض حسناته لقاء سيئته معي . . ولعلها
أخذت بالخطأ ولم يستطع أخذها معرفة عنواني ليرد ها ، ولا يملك الإنسان

== للطلابات بالتعليم الجامعي وأنشئت دوائر تلفزيونية مغلقة مزودة بأجهزة
تلفونية لكي يلقى الأساتذة محاضراتهم في الاستوديو ولتقل مباشرة إلى الطالبات
وتتم المناقشة والأسئلة عن طريق الهاتف وتتعلم الطالبة دون أن يعرف الأستاذ
شكلها .

(جريدة الأخبار في ٢ يولية ١٩٧٤ ، ١١ من جمادى الأولى ١٣٩٤ هـ)

في مثل هذه الحالات الا الدعاء : « رب قمني بما رزقني وبارك لي فيها أعطيتني وأخلف علي كل غائبة لي منك بخير » .

تبدأ العربية سيرها الساعة . (٢) بتوقيفنا في مصر إلى المدينة المنورة يحدثنا السائق أن السعودية تزرع البعلبش والعنب ... والقهوة ، يريد أن يقول : البن ولكنه يحس نشوة المشروب (١) .

تقف قليلا عند « ثول » محطة للسيارات بها مقهى بلدي ، ثم نقف بيدر . بيدر : وقد وقعت موقعة بدر في ١٠ من رمضان (السنة الثانية للهجرة) ونحن اليوم فيه ١٧ من رمضان بعد ألف وثلاثمائة وتسعين عاما ولكننا نحاول أن نتأمل الواقعة وما تزرخ به من معان .

أول تلك المعاني الشجاعة وحرية الرأي ، قلة قليلة (٣٠٥ رجال) تغلب كثرة (نحو ٩٥٠) الأولى زادها الحق والإيمان به ، والثانية في طريق البقي تدمير .

ولقد تمثلت ديمقراطية الإسلام حين اختار رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مكان المسلمين عند أدنى ماء من بدر فإذا رجل من المسلمين الأنصار هو الحباب بن المنذر يجد شيئا في نفسه من هذا الاختيار فيسأل الرسول : أمنزل أنزل الله .. أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فيخبره الرسول أنه

(١) إراجع بحث طوب من القهوة في كتاب « من نقعات الحرم » ص ٦٧ وما بعدها للإستاذ علي الطبطبائي دار الفكر بدمشق ١٩٦٠ م

الرأي والحرب والمكيدة فإذا التحبب يشير على الرسول يردم كل قلب (١)
وراء ظهره لكيلا ينتفع بها المشركون ما عدا واحدا يشرب منه المسلمون ويبنون
عليه حوضا فيجاب إلى طلبه ، وكان الانحصار في المعركة الذي سبقه الانحصار
بحرية الفكر .

واند جرت غزوة بدر بقيادة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المناضل
الشجاع بأسلوب لم يكن مألوفا من قبل هو أسلوب الصفوف الذي يدل على
النظام لا أسلوب الكر والفر ، وبالأسلوب الجديد تؤدي العبادة فلا ينسى
المقاتل صلته بالله مع عدم الفعلة عن الأسلحة والمتاع .

وحين نرى نتيجة المعركة يسرح الفكر إلى أولها ، فقد مثل الانحصار
سعد بن معاذ فقال لما قال : « . . فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ،
فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخفضناه معك ما تخلف منا رجل
واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر في الحرب ، صدق في
اللقاء ، أعل الله يريك هنا ما نقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله » . (٢)

وهذه الكلمة النابضة بالصدق وحرارة الإيمان المحددة لطاقة القوم في
خوض البحر ، وغدا ، هي عدة النصر تقربها عين النبي القائد وكان عليه
الصلاة والسلام « يخوف ألا تكون الانصار ترى عليها نصره إلا بمن دمه
بالمدينة من عدوه وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم . كما
يقول ابن هشام . (٣)

وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - - سمع في المنجس حين مشورته للصحاباء

(١) أي بشر .

(٢) سيرة النبي - لان هشام ٢ / ٢٥٤

(٣) المرجع السالف ٢ / ٢٥٣

قولا حسنا من أبي بكر وعمر ، وللقداد بن عمرو الذي قال : إمض لما أراك
الله فنيح بك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « فاذهب
أنت وربك فقائلا إنا هاهنا قاعدون » ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا
معكم مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد ^(١) لجالدنا
معك من دونه حتى تبلغه .

ويلفتنا في هذا الموقف :

١ — حرص النبي أن يكون للمسلمين رأى واحد في المعركة ، مهاجرين
وأنصار .

٢ — التوكل على الله لا التبرج الرخيص ومجاملة القائد في غير
استعداد نفسي بمن يخوضون المعركة .

ولكم من المعارك يخوضها « الجندى المجهول » ، ولكن بدرا حفظت
لشهادتها أسماء واحد واحد فأول من قتل مخرج مولد عمر بن الخطاب ،
ثم رمى حارث بن سراقة لم ينسب إلى أحد من مشاهير الإسلام كعمر ، وإنما
هو أحمد بن عدي بن النجار . . فقتل أيضا .

أردنا صلاة المغرب بالمسجد المقام هناك فإذا قريب منه عين بدر وقد أشارت
إليها بلدية المدينة المنورة بالعربية والانجليزية بعبارة ماء للوضوء Water for
lavation ، وليتها أوجزت شرحا في لافتة أين يبدأ هذا الجزء من المعين ،
فقد قيل لنا : من واد خلف جبل قريب ، وتنتهي في « الشهداء » .

ثم تناول طعام الإفطار في مقهى بلدى والجو في شعورنا يشع بأثر
المعاني وأعظمها .

(١) موطن بناحية اليمن .

ونمضى العربة في سكون الليل فتأخذنا اغفائة ثم نصتيقظ .. الطريق
طويل ، إذاعة القاهرة نسمعها والسائق مفاجئ بها وكذلك من معي فأقول
ينبغي أن نسمع إذاعة السمودية لنعرف جديدا ولكن أنزل فندرجتهم .

ها هي المدينة المنورة تلوح من بعيد ، فيخيل إلى أنه أول بناء ستلتقي
به هو الحرم النبوي .. رغبة فحسب ، ونصل المدينة وبمجهود قصير نوفق
إلى فندق من الحرم النبوي قريب .



الحرم النبوي

اليوم الثالث :

ننجه إلى الحرم النبوي لصلاة الفجر ، أول ما لفت نظري لوحة قرآنية أخذت موضعها مالياً بجانب الحجرة النبوية « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ، والله غفور رحيم » (١) .

مناجاة الرسول : فإذا أنا أرددها في نفسي أذوق حلاوتها وأتدبر معانيها ، لقد كان الرسول أمام قوم فيهم همجية ينادونه بصوت جهر دون شعور منهم برعاية حال النبي - صلى الله عليه وسلم - فكيف راضهم الرسول من بعد على الخلق الحميد حتى ليحسب أحدهم وكان رفيع الصوت (٢) أن تكون نزلت فيه « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي » فيبكي فيصطحبه أخ إلى النبي فتنزل الآية :

« إن الذين يفتخرون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم » (٣) .

ها نحن المسلمين نتاجي رسول الله في خشوع ، نسلم عليه ، وعندنا أنه يسمعنا لقد انتقل عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى في ١٢ من ربيع الأول سنة ١١ هـ وما يزال حياً في النفوس .. حياً برسالته الخاتمة .

الحليفة الأولى:

ها هو أبو بكر الصديق إلى جوار رسول الله كما كان إلى جواره يوم

(١) الحجرات ٤٤ هـ

(٢) هو ثابت بن قيس

(٣) الحجرات ٣ .

الهجرة نبله تحية الإسلام ذاكرين جهده في محاربة المرتدين ومأنعي الزكاة ،
سبحان الله ، أول من أسلم من الرجال إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
في هذا المكان أيضاً ورأسه عند ملكب الرسول - صلى الله عليه وسلم .

ثاني الخلفاء الراشدين :

وننتقل خطوة حيث يشق عمر بن الخطاب ورأسه عند ملكب أبي بكر
تلقى إليه تحية الإسلام وقد قال فيه رسول الله : اللهم أعز الإسلام بأحد
العمرين فكان عمر بن الخطاب ، الذي يذكره التاريخ فيذكر الشهادة
والعدل والرأي السديد .

أقد توفي عمر سنة ٢٣ هـ . ولكنه يظل نبراسا لكل قائم يبغي الحكم
للمصالح على مدى الأزمان .

ثم ننتقل القبله داعين الله لنا ولأحبائنا وامة المسلمين ، وأنا أذكر كلمة ،
« عامة المسلمين » أتذكر الى جوار رسول الله وصاحبيه أنه عن يمين الداخل
من باب « جبريل » يجد مكانا مرتفعا قليلا عن الأرض مسورا بسور معدني
ارتفاعه نحو قدم .

أهل الصفة :

إنه مكان « أهل الصفة » فقراء المهاجرين الذين عصموا البطون وآثروا
العبادة الدائمة في هذا المكان بين بابي « جبريل » و « النساء » من الحرم
النبي الشريف .

هؤلاء عظماء خادمو التاريخ كجماعة مسلمة نذكرهم بفخار وإعجاب وحب ،
وشقى المشاعر الطيبة ثم نخرج من المسجد لتصطدم العين والنفس بمنظر لا يذنب
أن يكون في مجتمع المسلمين ، نساء - وقليل من الرجال - يتسولن وبنات
يتشأن على هذه الخصلة الكريمة .

إمارة الفقراء :

وعندي أن الحكومة قادرة على أن تمنح العائلات الفقيرة إمانات تساعدنا على العيش الكريم حفاظا على الإسلام الذي يكفل الحياة الكريمة لرماله .
ويزيد الأمر خطورة أن المتسولة لا ترى غضاظة في أن تمديدتها ، سألت أحدا من عن جلسيتها - دون أن أعطيها قرشا - فقالت : من المدينة ، وأستطردت : وأنت واقف على أن تكون من مصر ، وهكذا المصريون والمغاربة كيف جاءت بهم طائفة أو باخرة ؟

سؤال مزيج من الاستغراب والاستنكار ألا تجد من يشجع ، وهو في صميمه يدل على أن الرسول كحق العمل لها في نظرها .

حمام الحرم :

والعمل ضروري لكي تستقيم للإنسان حياته ، ولو بيع الغلال لطائر الحرم في مكة والمدينة على السواء ، وقد كنت أعطى الفتاة البائعة مبلغا من المال - له كفاية عن خطأ يسير أقع فيه - لتضع بقيمته طعاما لحمام الحرم فأجدها تكاد تظهر من القرح أو الشفاق على الحمام لتفيع له ما قراه مناسبا لما دفعت في غير شح منها . ومعروف أن في حمام مكة إذا قتل شاة على المحرم بالحصى أو العسرة .

وهذا يدل على إنسانية الإسلام التي تقوم على التعاطف نحو الكائنات الوداعة . الحمام ، مما يربو المسلم على الدعوة إلى السلام في معاملاته مع الناس .

ومما يحصل بهذا تحريم الصيد في الحرم أو قتل الصيد في حالة الإحرام

إلا ما استثنى في حديث رسول الله ﷺ - « خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور » وقد تأس العلماء بالكلب العقور الذئب والسيح والنمر والفهد فهي أشد فتكا منه .
فالإسلام ليس مطلقا حين يتعرض المسلم لأذى .

نور الحرم :

ونعود إلى الحرم النبوي عند كل صلاة ، وعند المغرب نجد الحرم يخالق سناؤه : نور خارجي بمصابيح « الفلورسنت » ، ونور داخلي بالإيمان الذي جمع أجناسا متعددة ولغات مختلفة حول النبي العربي يقسمون من رسالة الإسلام الخالدة .

لقد آخى الإسلام بين الأوس والخزرج بمسند أن وقعت بينهما - قبل الإسلام - وقائع سفكت فيها الدماء حتى إذا ما هاجر الرسول إليهم أنعمت النبيلة من نفوسهم .

أخوة المؤمنين :

ليسموا من بعد « الأنصار » ثم آخى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بين هؤلاء الأنصار والمهاجرين .

وما أنذا أرى مشهداً لا نفوتنا دلالة : جرت عادة المسلمين قرب أذان المغرب في رمضان الجلوس بالحرم وقد أعد كل منهم بعض التمر ونوطا من الخبز وربما قليلا من القهوة يتبادلون به عند مدفع الإفطار إلى أن تقام الصلاة وقد رأيت من يختلس النظر إلى أخيه فيرى نوع التمر غير الذي يأكل منه

فيعطيه منه ، و نظر الثاني الى فوجد التمر الذي معى غير النوعين فأعطاني من تمره : وثلاثتنا لم يسبق لأحد منا معرفة بالآخرين ، ولكنهما روح الأخوة والتواء أنشأها المسجد الإسلامى . . فى غير جشع .

تقول السيدة عائشة « إن كنا آل محمد لتمكث شهراً ما نستوقد ناراً - طعام - إن هو إلا التمر والماء ، ولقد مات رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما شبع من خبز وزيت فى يوم واحد مرتين » .

وؤكد المعنى نفسه بقولها « ما شبع آل محمد - صلى الله عليه وسلم - منذ قدم المدينة من طعام بر ثلاث ليال تباعا حتى قمض » .

صحف المدينة :

وبعد صلاة العشاء والقيام أمضى بعض الوقت فى المكتبة العامة بالمدينة المنورة ولأول مرة أعرف أسماء الصحف التى تصدر بالمدينة : هكذا ، البلاد ، المدينة .

وينبغى أن تقرأ هذه الصحف فى مصر فلا حدود بين بلاد العالم الإسلامى لاسيما فى مجال الفكر ، وجيل أن تحرر مثلاً مجلة « الرابطة الإسلامية » بالفتن العربية والإنجليزية على النحو الذى تصدر به مجلة « الأزهر » فهى تسعى الى القارىء الذى لا يعرف العربية ويعرف الإنجليزية وهو مسلم يدين بالقرآن كامل باكستان واندونيسيا . . فهم يعرفون قراءة القرآن وكما به ولكنهم لا يعرفون العربية فى غير القرآن ما عدا بعض الكلمات الإسلامية .

وأرى لارتباط بين العالم الإسلامي أن تدرس العربية في البلاد الإسلامية،
والأردية في البلاد العربية، فمن غير السائع أن تكون الإنجليزية لغة التفاهم
بين المسلمين ١.

اليوم الرابع :

نبدأ هذا اليوم بعبادة الفجر في الحرم النبوي، فنكرار الصلاة به شيء
لا يمل بل نزداد رغبة فيه كلما ازدادنا رياء من نبع الإسلام الصافي، حيث لا بدع
ولا خرافات تنسب إلى الدين، ففي روضة محمد — صلى الله عليه وسلم —
لا يمكن أن يدنس ذوق في غير ما بلغ الرسول عن رب العالمين من دين الفطرة
المهذبة، والفكر العالي .

نشهد أن محمدا رسول الله بلغ الرسالة وأدى الأمانة فاستحق أن يرفع
الله ذكره .

التشهد : ولا نجد أفضل مما ورد في « التشهد » في الدعاء بالصلاة عليه ، ففي
التشهد ذكر ابراهيم وآل ابراهيم مما يدل على امتداد الرسالة منذ أبي الأنبياء
حتى خاتم الرسل محمد — صلى الله عليه وسلم — وفيه تقدير لمكانة النبوة —
في ذاتها — وفيه احترام للأسرة الإسلامية في الصميم، ففي كلمة « آل محمد »
و« آل ابراهيم » ما تستريح إليه النفس، فزوجات الرسول أمهات المؤمنين ،
والرسول — صلى الله عليه وسلم — وصفه القرآن بأنه « بالؤمنين رؤوف
رحيم »، وأخبرنا — عليه الصلاة والسلام — أنه لن يؤمن أحدكم حتى أكون
أحب إليه من ماله وولده ونفسه .

فأي امتزاج نفسي وعقائدي يجمع بين التابع والمتبوع .

جنة البقيع : ذهبنا إلى البقيع مقبرة شرقي المدينة المنورة فيرشدنا المזור - نظير «المطوف» في الكعبة - هنا العباس بن عبد المطلب ، فاطمة الزهراء ، الحسن ، محمد الباقر ، وهنا بنات الرسول - صلى الله عليه وسلم - زينب ورقية وأم كلثوم ، وهنا أزواج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهنا صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عقیل بن أبی طالب ، سفیان بن الحارث ، عبد الله بن الإمام جعفر ، وهنا إمام دار الهجرة مالك بن أنس الذي ما برح المدينة إلى قطار أجنبي. وفدت إليه الناس من كل جنس وأفادت منه علما ، ونافع شيخ القراء مولی عهد الله بن عمر .

وهنا عمه الرسول صفية بنت عبد المطلب أم الزبير بن العوام ، وهنا إبراهيم ابن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهنا شهداء أحد ونظير جبل أحد يظهر واضحا على البعد - وهنا عثمان بن عفان ، وهنا حامية السعدية .

ثم يذكر أن خارج سور البقيع أبا سعيد الخدري وفاطمة ابنة أسد والدة أمير المؤمنين علي . ونحن نسلم عليهم .

ونشعر في كل مرة أنه يشير إلى أب أو أخ أو أم أو أخت واره الأرب بالأمس القريب ومحامده على القلب والفكر واللسان .

وعند الخروج يظهر جبل سلع على الأفق متقارباً مع مئذنة الحرم والقبة الخضراء .

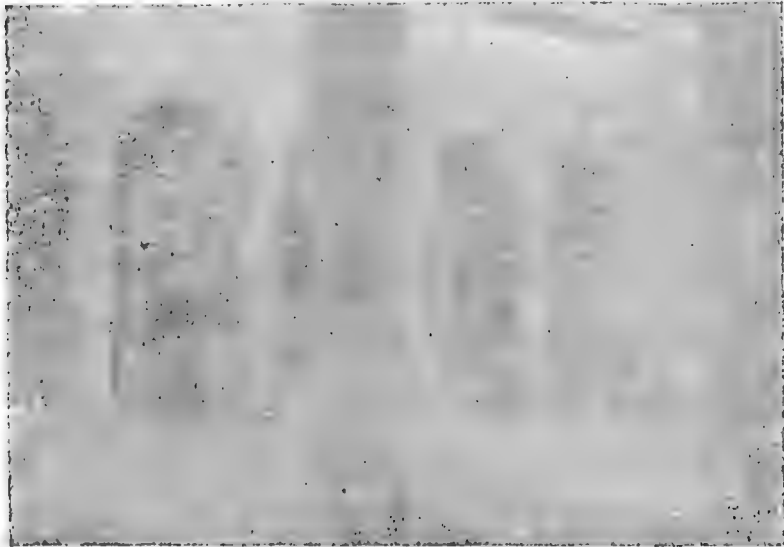
ولا يزال بقيع الغرقد (١) أو جنة البقيع كما يسميه بعض ، فقد دفن

(١) محلي بذلك لأنه كان فيه غرقد شجر الشوك - وقطع .. النهاية ٣/٣٦٢

فيه نحو عشرة آلاف صحابي ، يحتوى من أجساد المساكين كل يوم ما شاء الله ،
فالأرض فيه لذلك مقسمة ألساما ثلاثة أو أربعة يوارى فيها بالتعاقب .

ونستقل سيارة إلى المزارات بالمدينة المنورة :

(١) مسجد قباء : وينطقونها بحذف الهمزة ، وهو بقرية في الجنوب الغربي



مسجد قباء

على بعد ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة ، أقام بها رسول الله
— صلى الله عليه وسلم — في بني عمرو بن عوف أربعة أيام أو تزيد وبها أنشئ
المسجد الذي قال فيه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومن تطهر في بيته ثم
أتى مسجد قباء فيصلي فيه صلاة كان له كأجر عمرة ، ويزوي أن عمر بن

الخطاب كان يأتيه يومى الاثنين والخميس ويقول: لو كان مسجد قباء فى أفق من الآفاق لضربنا إليه أكباد الابل .

والحق أن هذا المواطن يصل فكرك وقلبك بالحرم النبوى والمنطقة حواليه كما يصلنا بماضى الدعوة الاسلاميه الاولى . . إلى الأنصار وكأنها وقعت فى يومنا الحاضر .

فقد أدركت رسول الله الجمعه فى بنى سالم بن عوف فصلاها بالمسجد الذى فى بطن وادى رانواء فكانت أول جمعة صلاها بالمدينه ، وهنا يتسابق الناس بين مسافه وأخرى من الطريق فى استضافه رسول الله - ﷺ - قائلين له : هلم إلينا إلى العدد والعدة والمئمة فيقول لهم وهو راكب ناقته « دخلوا سبيلها فانها مأموره » فيدخلون سبيلها وتعلق حتى إذا أتت بنى مالك بن النجار بركت فى مرقد^(١) . فسأل الرسول : لمن هو ؟ فقال معاذ بن عفراء : لفلانين يتيمين له ، هما سهل وسهيل بنى عمرو ، وسأرضهما منه ، فأمر به رسول الله أن يبنى مسجداً^(٢) ونزل الرسول - ﷺ - على أبى أيوب خالد ابن زيد ، ولم يشار رسول الله - ﷺ - أن يكون فى العلو من البيت كما عرض عليه أبو أيوب ، وإنما أقام بالسفل قائلاً يا أبا أيوب أن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى سفلى البيت .

ولقد كان الرسول يعمل فى بناء المسجد مع المهاجرين والأنصار وهم يقولون :

(١) الموضع الذى يجذف فيه التمر .

(٢) لم يفت صاحب «الطبقات الكبرى» الإشارة إلى أن رسول - ﷺ - ابتاعه منها بعشرة دنانير مع قولها له : بل نهبه لك يا رسول الله : ٢٣/٢٠٠ .

لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم أرحم الأنصار والمهاجرة
مما يدل على تطلعهم إلى اليوم الآخر وإيمانهم به ، وكذلك كان يعمل على
أبي طالب .

كنا نسير في هذه المنطقة حوالى المسجد ويخطر لنا أن رسول الله مشى
في هذه الطريق أو تلك فنحس التشوة والسرور ... والأدب أيضاً .

ثم تنطلق العربدة إلى :

(٧) جبل أحد : هنا شمال المدينة وقعت معركة انتصر فيها المسلمون فيما
أرى وإلا لما قال الرسول : هذا جبل يحبنا ونحبه . وإن كنا نحس ضراوتها
وشدة الرغبة في الانتقام في قول أبي سفيان : يوم بدر والحرب سهيل ،
وتجدون مثله لم أسر بها ولم تصؤنى .



جبل أحد

وقد أصيب فيها النبي ﷺ فكسرت رباهيه وجرح وجهه وكسرت
 البيضة على رأسه وهاهو يقول - ﷺ - «أشد غضب الله على من قتله
 للنبي ﷺ - في سبيل الله ، أشد غضب الله على قوم دموا وجه نبي الله
 ﷺ» .

لقد اشترك الرسول مخطئاً للمعركة ، فكان من خطئه - ﷺ - أن
 يثب الرماة «إن رأيتمونا ظهورنا عليهم فلا تهرجوا ، وإن رأيتموهم ظهورا
 علينا فلا تعينونا» ذلك أن المشركين كان لهم مائتا فرس يقاتلون عليها فإذا
 أخذ الرماة يرشقونها بالنبال فبهت أن تتقدم ، وهكذا فعل المسلمون في بدر ،
 ولكنهم في هذه المعركة - كما يقول الهراء - هربوا حتى رأيت النساء
 يشتدون في الجبل ، رفعن عن سوقهم قد بدت خلاخاين فأخذوا يقولون .
 الغنيمة ، الغنيمة ... وهنا يغتم فرسان المشركين الفرصة ليتقدموا...

وكان من أسلعة المشركين الشائعة يروجونها لعلها تصيب أثرها في إيهان
 القوى المعنوية ، وكان من أخطر ما يقال أن يتردد عن النبي أنه قتل ، فقد
 بلغ حب المسلمين لرسول الله - ﷺ - أنهم لا يصحرون موته ولقد سجل
 القرآن ذلك «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل
 انقلبتم على أعقابكم (١)» .

وبالفعل أشاع لميعة اللئيم قاتل مضعوب بن عمير بين يدي رسول الله أنه
 قتل محمداً ، ولك أن تتصور كيف يغلب الحزن القوم فيرجع بعضهم في طريق

المدينة ، بينما تنقلب الحيرة بعضهم فتصيب سهام المسلمين المسلمين ، بينما نبت مع الله
البعض الآخر... ويظهر صوت التفاف « لو كان فيها ما قتل فأرجعوا إلى دينكم
الأول » ...

وأيا كان الأمر فقد كانت «أحد» محمكا صادقا لنفوس القوم ونضرب
مثلا واحدا عمرو بن الجوح كان أخرج وليس على الأخرج حرج ولكنه
يقول «أرجو أن أطا بمرجتي هذه في الجنة» ، فأبى إخلاص هذا يدفعه
إلى الاستشهاد في سبيل الله هو وابنه خلاد ... وغيرهما كان يريد أن يرزقه
الله الشهادة .

وقد ظهر النبي فالدا إنسانا يسأل عن جنوده ولا يئس من نصر الله ،
فقد سأل مثلا عن سعد بن الربيع ، وذكر أن بن عبد قيس ، وكان يدعو
للقلى أحد بالجنة ويقول :

«أنا شهيد على هؤلاء وما من جرح يجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة
يدعى جرحه ، اللون لون الدم والريح ريح المسك»

«ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون» .
من أجل هذا قدمها أن المسلمين - برغم دروس المعركة القاسية أحيانا -
انتصروا وليس أدل على ذلك من أن فرسان قريش لم يدخلوا المدينة ووقفوا
بالعقيق - موضع بالمدينة - وهموا بدخولها ولكن موقعة بدر كانت في واقعهم
حائلا دون التقدم ويقول فاللهم .

«ولا تأمن أن يكبروا علينا وفينا جراح ، وخيلنا طامعها قد عقرت
من النبل» .

وقد انتهت المعركة في ٧ من شوال سنة ٥٣هـ (٢٣ مارس ٦٢٥ م) وحمل الناس قتلاهم إلى المدينة فقال منادى رسول الله ﷺ «ردوا القتل إلى مضاجعهم» ولكنهم كانوا قد دفنوا فتركوا إلا واحدا رد.

قبر حمزة وصاحبيه :

هانئنا نرى قريبا من جبل الرماة قبر حمزة بن عبد المطلب وهداه الله بن جعش ومصعب بن عمير .

لقد دفن ثلاثهم في قبور معجورة أو لها قبر واحد ، وقد قال الرسول لأهل القلعة :

أحفروا وأوسعوا وأحسنوا وأدفنوا الاثنين والثلاثة في القبر وقدموا أكثرهم قرآنا .

وعن هؤلاء الثلاثة يروى أن الرسول ﷺ — حين توجه إلى المدينة لقيته حمزة بنت جعش بنت عمه — ﷺ فقال لها :

احصيني .

— من يا رسول الله ؟

— خالك حمزة .

— إنا لله وإنا إليه راجعون ، غفر الله له ، هنيئًا لآل الشهاداة .

— ثم قال لها :

احصيني

— من يا رسول الله ؟

— أخاك عبد الله بن جحش .

— إنا لله وإنا إليه راجعون ، غفر الله له ، هنيئاً له الشهادة .

ثم قال لها :

— أحسبي .

— من يارسول الله ؟

— زوجك مصعب بن عمير .

— فصاحت : واحزناء ، واحر قلباء .

فقال لها رسول الله — ﷺ — :

— لم قلت هذا ؟

— تذكرت يتم بنيه فراخى .

ولعل الحزن قد فاض بها بعد الاثنين فولوات عند ذكر زوجها ، على أن
لرسول الله — ﷺ — دعاها ولولدها أن يحسن الله عليهم الخلف ، فتزوجت
طلحة بن عبد الله فكان أوصل الناس لولدها .

ويرغم أن المنطقة لا تحوى من القبور غير ما هؤلاء الثلاثة فان النساء ممنوع
دخولهن ويلقن من وراء سور ، وهناك لافتة بلغات ثلاث :

« الصلاة عند القبور والتمسح بها ورمى التفلود عليها لا يجيزه الشريعة
الاسلامية » .

ثم تمضى العربية إلى :

(٣) بئر عثمان : وقد نصب مأوها وهي داخل مزرعة لوزارة الزراعة
السعودية .

(٤) مسجد القبلتين : وهو كما يدل عليه اسمه المسجد الذي كان يصلى فيه رسول الله نحو بيت المقدس سبعة عشر شهراً من مقامه بالمدينة ، وقرأت الآية الكريمة « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أولوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون (١) » .

فيحول الرسول ﷺ — في صلاته من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام ، وفي هذا تكريم للبيت الذي رفع القواعد منه أبو الأنبياء إبراهيم عليهم السلام — وتشريف لمكة .

(٥) مسجد الخندق أو الفتح : ويقع على الخندق ، ولعله سمي بالفتح والمسجد التي جهة قبلته تيمنا بسورة الفتح... ونعود إلى المدينة حيث نرى في طريقنا :
(٦) مسجد الغمامة : وهو في ميدان قريب من الحرم إلى حد ما .

وننتقل إلى الحرم النبوي الشريف ، الوقت الظهيرة قد تجدد من ينام في الحرم وتستغرب لذلك ولكن الأمر في أعماقه نعمة من الله بالنسبة للمسافر إلى المدينة وتنقل عليه أجرة الفنادق أو تسقى عليه جرارة الشمس في رابعة النهار ، وقد كان ابن عمر ينام في مسجد الرسول ﷺ — وهو عزب .

ونزور المصطفى عليه الصلاة والسلام وندهو ما طاب لنا القدماء ونخرج لنعد حقائبنا قاصدين آبار على بركة « شفروليه » حيث وصلنا إليها بعد عشر دقائق .
آبار على : أين هي آبار على ؟ ذكر لنا أحد المقيمين بالمنطقة أنها بعيدة قليلاً ولا فائدة

من زيارتها لنضوبها وتوجد آبار صغيرة يمتلئ منها الماء ويؤكد هذا المقيم أنها
تفتت حصص الكلى .. ولكن الوقت صيام ولا سبيل إلى مذاقها فنكتفى بالاحرام
وصلاة ركعتين .

ونذكر أن ابن تيمية يتحدث عن هذه المنطقة قائلا وفيها بئر سميها
جبال العامة بئر على ، لظنهم أن عليا قاتل الجن بها ، وهو كذب فإن الجن
لم يقاتلهم أحد من الصحابة .. ولا فضيلة لهذا البئر ولا مذمة .

سارت العربية على بركة الله .. الطريق طويلة تحفها الجبال في كثير من
المناطق ، والظلام يكاد يلفها تماما الا ما نرى من مصابيح اشارة للسيارات العابرة ،
لولا وجود هذه المصابيح المضيئة أكانت تسير العربات في غير اصطدام بعضها
ببعض ، ونهشيمها جميعا برغم مهارة القيادة ؟ .

يخطر هذا السؤال لنا فتذكر أن الإيمان كذلك في ضرورته للانسان .

بكة . هاهي مكة التي كرمها الله حين ذكرها في القرآن بهذا الاسم ، «بكة»
مرة و «أم القرى» أخرى فاشتهرت هذه الأسماء القرآنية دون غيرها مثل
الناسه (١) ، والباسه والحاطمة ، تقع على خط عرض ٢١° شمالا ومقاطعة
مع خط الطول ٣٩° شرقا .

و إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مبارك وهدي للعالمين (٢) ،

(١) في أساس البلاغة : قيل لمكة الناسه لجديها ويسها .

(٢) آل عمران ٩٦

نعم ، للعالمين يحجون إليه ويطوفون حوله من مصر وباكستان ، ويورما ،
ونيجيريا ، وروسيا... وغيرها يزفرون هذا البيت ويبلغ بهم التأثر حد البكاء العاويل في
مناجاة لله أن يرفع عنهم إصرهم ويفرج كربهم ويجعل الوارث منهم .

« وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها ^(١) »

ويقرا زميل من كتاب ^(٢) دعاء يذكر عند دخول مكة المكرمة :

« اللهم إن هذا الحرم حرمك والبلد بلدك ، والأمن أمنك والعبد عبدك
جئتك بذنوب كثيرة وأعمال سيئة ، أسألك مسألة المضطرين إليك المشفقين من
هذا أن تستغفاني بمحض عفوك وأن تدخلني في فسيح جنتك »...

ويردد الرفقة الدعاء ، وتستوقفني كلمة « ذنوب كثيرة وأعمال سيئة »
أبدا لأحس أني ارتكبت ذنوبا كثيرة جئت لغفر هنا وإن كان قد يغاب
على الناس ذلك ، لقد جئت ألعس الخير فوق الخير في نفسي ، وربما حايت
الغفس دون أن أدري ، فأشعر بالذنوب مسألة نسبية تخضع للفرد وطهاهه
وللأمة وتقاليدها .

ونستكمل الدعاء « اللهم إن هذا الحرم حرمك وجرم رسولك فحرم لمي
وعظمى على النار ، اللهم آمين من عذابك يوم تبعث عبادك ، أسألك بأنك

(١) الشورى ٧

(٢) مفاسك الحج والعمرة . عبد الرحمن بن عبد الله وصالح الدين عطية

ط (١٣٩١) ٥ - ١٩٧٢م القاهرة .

الله الذي لا إله إلا أنت الرحمن الرحيم أن تعلى وتسلم على سيدنا محمد - ﷺ -
وصحبه ، وسلم تسليما كبيرا أبدا .

فيقع الدماء في النفس موقعا طيبا « خرم لحمي وعظمي على النار » لاسيما عند
رؤية البيت الحرام فعلا .

تقف السيارة لنبحث عن مكان نبيت فيه ، لاشئ حاضرا يلوق بمكاننا
الاجتماعية أو يعادل فندق السعادة الذي أثنأ به في المدينة المنورة منذ أيام . وتضطر
إلى المبيت في بيت لأحد الناس أسمى نفسه « خادم بيت الله الحرام » - تسمية
فخر للملوك في هذه البلاد (١) - وأراد أن يؤجره لنا بدون « حنبل » . فأسأل
عن معنى « حنبل » فيعبرني زميلي المصري : يقصد السجاد لنتام فوقه . إذ لا
توجد أسرة . . لا بأس على أبناء الأرض أن يتأوا - وأعلى الأرض ، وفي
المسجد الحرام متسع للآثام يقضون فيه يومهم وغالب ليلهم ، الناس هنا لا
يعرفون بمكانتهم الاجتماعية في غير هذا البلد . . المكانة الدينية ينظرها الله ولا
شئ غيرها . . وفي صحيح مسلم أنه - ﷺ - « ظلي يتكئ على وسادة من
أدم حشوها ليف ، وقبض في ثوبين متواضعين : إزار غليظ مما يصنع باليمن
وكساء ملبد .

ولقد رأي بعض في الآية الكريمة :

« وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتنا للطائفين والعاكفين والركع
السجود . »

(١) من الآثار التي ذكرت للمغفور له الفيصل بن عبد العزيز أنه رفض
أن يطلق عليه « جلالة الملك » . فجلالة الله وحده .

أن العاكفين يقصد بهم من اتقاه - أى الحرم - من الأعمار فأقام عنده ،
وعن عمر بن الخطاب أنه سئل عن الذين ينهضون في المسجد فقال : هم
العاكفون (١) .

نعم ، إنهم ضيوف الله في بيته الكريم « طهرا بيتي » .
تركتنا متاعنا لنقوم بزيارة المسجد الحرام ، وعند الدخول من باب السلام
نقول :

« اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام ، وأدخلنا الجنة دارك
دار السلام . . »

« السلام » تكرر حتى تشبع بها النفس في بلد السلام والأمن كما دعا الله
لها إبراهيم عليه السلام ، وليس أحسن من الجنود في مكة لا يحملون سلاحا .
هكذا رأيت ، فإذا ما رأيت البيت الشريف لاتفك إلا أن تقول : الله أكبر :
الله أكبر ، الله أكبر ، وتهلل ثلاثا أيضا فكلمة « لا اله إلا الله » تنضج في
النفس كاعرق ما تكون في هذا المكان العظيم .

« اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة وبراً ، وزد من
شرفه وكرمه بمن حججه أو اعتمره تشريفا وتعظيما » .

الكعبة المشرفة : لقد تذكرت أن الكعبة على مر التاريخ وجدت من يحاربها
وتعمدت له ولعل أول هجوم عليها حملة أبرهة الحبشي التي وجهها من اليمن

(١) نيل المرام - محمد صديق خان ص ٣٢ - ط التجارية سنة ١٩٦٣ م

نحو سنة ٥٧٠ م وقد أراد أن يحول دون التفاف الناس حولها وبني كنيسة
بديل عنها ولكنه حين قدم ليهدها وأصحابه أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ،
وتأمل هذا الجمع الذي لا يعرف مفردة بقبينا (١) ربما يعبر عن فظاعة هذا الكم
بما لا نستطيع أن نتصور أفراداً حتى يلتصقوا أصحاب القيل كأوراق للشجر
بأكلها الدود

هذا في الجاهلية .. وفي العصر الأموي أرسل يزيد بن معاوية رجلاً
يهدى الحصين بن نمير على رأس جيش لمحاربة عبد الله بن الزبير في مكة وسار
الجيش وضيق الحصار على عبد الله وصحبه فأضطروا إلى اللجوء إلى الكعبة
وبنوا حولها خصاصاً من القصب ولكن الحصين لم يكف عن أمر رجاله
بضرب الكعبة بالمنجنيق حتى تمزقت كتوتها وبدت أحجارها (٢) ...
تذكرت هذا المشهد وما فعلته الصهيونية في بيت المقدس فدعوت الله أن
يجعل هذا البلد آمناً .. حين يظل الناس في أمنهم للنفس دون تنأحر على
مرض الدنيا أو تحاسد وتباغض .

ومن يقرأ الآية الكريمة « واقتلوا من حيث تقتلونهم وأخرجوهم من حيث
أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم
فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين » (٣) .

(١) قيل : أبالة ، وأبول ، وأبيل ، وأبال ..

(٢) في منزل الوحى ص ٢١١

(٣) البقرة ١٩١

يدرككم عزيز على العناية الإلهية أن يحدث قتال عند المسجد الحرام إلا أن يضطر المسامون في هذا الموضع دفاعاً عن النفس، والدين كما يقول الله: « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتاله فيه كبير وهد من سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ، ومن يردكم من دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة . وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . (١)

الطواف حول الكعبة : تقرب من البيت الكريم ثم نبدأ بالطواف ، وباب البيت من يسار مبعدتين بالحجر الأسود ، سبعة أشواط الثلاثة الأولى رملاً أي فوق المشي ودون الجري مع هز الكتفين .. حركة رياضية تدله مع الاضطباع — على القوة والنشاط ، ولا رمل على النساء .

الحجر الأسود : وهنا نجد الناس متراحمين في شوق كل يريد أن يقبل الحجر الأسود ولا يرى التراحم ضرورياً إذ يمكن الاستعاضة عن التقبيل بإسلامه باليد أو مشياً عليه يمينك من بعد .

وغالب الظن أنه ليس من ججارة الأرض فقد يكون من السماء من طريق النيازك ، فهو عزيز على القوم حتى أن قريشاً بنى الكعبة بعد أن كان هدمها السبل ثم يتنازع زعماء ما أيهم يضع الحجر حتى يحكموا أول من يطلع عليهم .. فكان النبي عليه الصلاة والسلام ، هنا لا يشيخ محمد بوجهه مسفها أن يتنازعوا على وضع حجر وإنما يسطر دءاه ويضع في الوسط الحجر ثم

يقوله لأربعة من أهل الرئاسة فيهم : ليأخذ كل واحد بحنبل من جنبات هذا الرداء ، فشالوه وأدنوه من موضعه فأخذوه — عليه الصلاة والسلام — ووضعوه في مكانه وقريش كلها حضور (١) .

وتمضى نحو خمس سنين (٢) على بناء الكعبة ليبعث محمد نبيا ، فكانما كان اختيار قريش بأشرافها وشيوخها لمحمد أن يضع الحجر الأسود إقرارا منهم أنهم يحتاجون إلى محمد — عليه الصلاة والسلام — في الأمر كله من بعد . والحجر الأسود هو الذي قال فيه عمر إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا ألى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك . . وهو — والله للمثل الأعلى — يعين الله في أرضه يضافحها أو يقبلها المسلم معاهدا الله على دوام العنسل بسنن الإسلام ، وليس هذا بمستغرب والبيت بيت الله ووضعوه في الركن إلى الياپ قد يناسب هذا الفهم .

ومن الملحوظ أن المطوفين بالقنون الحجيج أو المعتمرين أدعيه مقينة يختلف كل منها في شوط عن الآخر أما عند الطواف بين الركن اليماني والحجر الأسود فيعكرر الدعاء القرآنى :

«ربنا آتتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» (٣)

وهكذا أن للمسلم أن يدعو بما يعبر عن حاجته وسؤله صادقا غلصا لله بأى دعاء يشاء .

(١) مروج الذهب ص ٤٩١

(٢) مروج الذهب ص ٤٩١

(٣) البقرة ٢٠١

مقام إبراهيم : ثم نتجه إلى مقام إبراهيم حسب الأمر القرآني :
 « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمانا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى (١) » .

ونصلي ركعتين سنة الطواف ويستحب أن يقرأ فيها « قل يا أيها الكافرون »
 و« قل هو الله أحد » .

ومن المفسرين من يرى أنه يقصد بمقام إبراهيم الحرم كله (٢) ، ونستريح
 إلى أن المقصود به على التخصيص الحجر الذي قام عليه أبو الأنبياء وهو يرفع
 القواعد من بيت الله الحرام ويتأوله اسماعيل الحجرارة ، ويدعو المسلم دعاء
 إبراهيم واسماعيل :

« ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ونصب
 علينا إنك أنت التواب الرحيم » (٣) .

والمقام حاليا أمام الكعبة يمتد المأزم حين تقف مستقبلا القبلة محاط بسور
 معدني على قاعدة من رخام ، وقد قيل إنه كان ملصقا بجدار الكعبة وأخره
 من الجدار عمر بن الخطاب ، وليس في صنيع عمر ما يثير شكاً وقد قال رسول
 الله ﷺ - « ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » ويقصد بها
 المسلمون صادقو الإسلام بفهم ووعي ، ومن مثل عمر مسلما بين قادة التاريخ ؟

(١) البقرة ١٢٥

(٢) تفسير ابن كثير ١/١٦٨

(٣) البقرة ١٢٨

وقد كانت بعض آيات القرآن تنزل موافقة لما يرى ومنها - في هذا المعبود - ما رآه عمر من العبلة خلف مقام إبراهيم إذ قال :

يا رسول الله ، لو صليت خلف المذبح ! فأنزل الله - سبحانه - « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » ودلالة هذا الأمر أن محمدا - ﷺ - يقوم مقام خليل الله رسولا نبيا وأن الدعوة معصلة .

ثم يستحب أن نعود إلى الحجر الأسود - الرمز القديم - نعتله .
ومن المشاهد العميقة وقوف المسلمين بالملتزم - ما بين الركن والباب - وقد إنهمرت دموعهم ، ومنهم من يقف ساعة أو تزيد رافعا يديه على حائط الكعبة بين بابها والحجر الأسود ملتصقا بأستار الكعبة ، وقد كنت أسمع لغات غريبة عنى ممن يجاورونى بالمكان ومع ذلك فلا عنى واضح ... صله عميقة بالله ، وذنوب قد أذابتها الدموع فيصبح الإنسان طاهرا كيوم ولدت أمه .

ومن التجمعات اللافئة في حجر اسماعيل وهو ما حواه الجدار المدار بالبيت جانب الشمال يصلون ويدعون فتحسن مع الحركة الاهتمام البالغ بالوصول إلى الله - تجميع لا للمصالح الشخصية الدنيوية ، وإنما هو تجمع هادئ لهدف عال يصل بهم إلى اليوم الآخر يبتغون به الجنة إن شاء الله .

الصفاء والمروة:

ثم خرجنا للسعى بين الصفا والمروة ، أما المسنون أو غير القادرين فتمتة عربات لهم نظائر رياضات قليلة ، ويلبغى أن يتسامح العمال المختصون بهذه العربات في العمل الذي يتقاضونه من الحجيج أو المعتمرين إذا لم يستطيعوا

نذفع ما يقررون من أجر مساعدة لهم في أداء شعيرة من شعائر الله كما قال الله : «إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم» (١) .

ولم يرد ذكر الصفا والمروة في القرآن في غير هذه الآية ولكنها تبلغ من نفس المؤمن مبلغا عميقا وهو يرددها في سبعة الأشواط كلما اقترب من الصفا أو المروة حتى يبلغها ويرتفع فوقها .

وواضح من الآية أنها نزلت في قوم تخرجوا من الطواف بالصفا والمروة بعد إسلامهم إذ كانوا يطوفون بها في الجاهلية ، ولكن فرق بين من يطوف وهو غالب الوعى عن الهدف من طوافه أو يظن أن الصفا والمروة معبودين من دون الله ، وبين من يدرك الحكمة الإسلامية من واقع التاريخ ...

فالأصل في الطواف قصة أم اسماعيل - عليه السلام - حين عطش ابنها عطشا شديدا فصعدت إلى الصفا (٢) - وحي من أصل جبل قبيس - فنظرت فلم تر شيئا حتى أتت المروة (٣) فلم تر شيئا فعادت إلى الصفا ثم إلى المروة سبع مرار فتمالت يا اسماعيل مت حيث لا أراك فأنته وهو يفحص برجله من من العطش فتأداهما جبريل : من أنت ؟ قالت : وكلنا إلى الله ، قال : وكلكما

(١) البقرة ١٥٨

(٢) الصفا : جمع صفاة وهي الصخرة والحجر الأملس .

(٣) المروة : حجر أبيض براق... من أجل هذا بدأ المهاجر من بعيد كسحاب فباركه .

إلى كاف وفحص الأرض بأصبعه فنبعت زمزم فجعلت تحبس الماء (١)، وفي ذلك يقول - ﷺ « لو تركته لكان الماء ظاهراً » (٢)

دلالات المسمى:

وهذا الحديث يدل على أن الحكاية ليست أسطورة كما قد يتبادر إلى ذهن، تقول الدكتور بنت الشاطي « إن جهاد أم في سبيل ولدها قد قبلته السماء ورأت فيه أسمى صورة من صور العبادة فجعلت من تلك القصة الإنسانية المؤثرة للأمم سقراً يتلى في « الكتاب المقدس » وجعلت من دعاء إبراهيم آية منزلة في « القرآن الكريم » ..

١- الأمومة:

واستطرد قائلة « .. وما كانت « هاجر » سوى أمه طريفة مضطهدة نهذت مع وليدها بالعزاء في القلاة الموحشة بواد غمر ذى زرع الكنا أم ، وكانت الأمومة حسبها عبادة وقراباً » (٣)

٢- العمل الدائب:

وفوق هذا المعنى الإنساني الكبير نجد معنى تقدير العمل حين يلوح الأمل ، وقد حرك هذا المعنى في النفوس رسول الله - ﷺ - وهو يسعى حتى أرى ركبته من شدة السعي يدور به إزاره وهو يقول : اسعوا، فإن الله كعب عليكم السعي .

(١) تفسير ابن كثير ١/١٧٨ (٢) تفسير ابن كثير ١/١٧٧

(٣) أرض المعجزات ص ٩٣ وما بعدها - دار المعارف بمصر ، (اقرأ)

سبتمبر سنة ١٩٥٦

وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله - ﷺ - كان إذا وقف على الصفا يكبر ثلاثا ويقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

يصنع ذلك ثلاث مرات ويصنع على المروة مثله (١) .

فهو عليه الصلاة والسلام قد بدأ بالصفا كما بدأت الآية الكريمة .

٣ - الامتثال : وحسب المؤمن أن يمثل أمر الله ولو خفيت المعاني وراءه ، ومن الخطأ الظن أنه ليس على الرجل شيء أن لا يطوف بهما كما في حديث مروة - وهو حديث السنن - لعائشة - رضى الله عنها - فقالت عائشة : كلا ، لو كان كما تقول لكنت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما .

فقد أصبح الطواف بهما بالتعبير القرآني من شعائر الله أى علما بطاعته « جل وعلا » فهو إذن ركن لا يصح الحج أو العمرة إلا به .

يقول مالك : لا أرى على الذى يرى الجمار أو يسعى بين الصفا والمروة وهو غير متوض عادة ولكن لا يعتمد ذلك (٢) .

ولقد أوضح بدء الهرولة بالنسبة للرجال دون النساء ضوء أخضر بعد الصفا بنحو ٧٥ مترا وتنتهى بعد نحو سبعين مترا وهذه المسافة يظنها ضوء آخر أخضر وفى أثناء الطواف سيرا ، أو هرولة كت أرى الطريق مسقيا

(١) الموطأ ص ٢٤٣

(٢) الموطأ ص ٢٦٣

« إحساس لأجده في غيره من الطريق » فادعو الله أن يهديني الصراط المستقيم ، وأن يكلل مسعانا بالخير .

وبنتهى الشوط السابع عند المروة حيث تجدد بعض الصبية يحمل كل مقصدا لتقصير الشعر فيتجمل المحرم من الاحرام وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ اللهم ارحم المحققين ، قالوا : والمقصرين يا رسول الله ، قال : اللهم ارحم المحققين ، قالوا : والمقصرين يا رسول الله ، قال : والمقصرين .

اليوم الخامس : نفضيه في الأسواق ، واكن كلما أذن المؤذن لصلاة أسرعنا إلى المسجد الحرام . وربها توجهنا إلى المسجد قبل الصلاة للطواف بالبيت فإذا ما أقيمت الصلاة أثناء طوافنا أدبنا الصلاة ثم نعود لتكملة الطواف .

وأنامل للطائمين كل في شغل عن الآخر إلا من سؤال سرح من أحدهم لآخر عن شيء يريد أن يعرفه أثناء الطواف ..

الإحرام والحياة . لقد تجردوا جميعا من أسباب الدنيا إلا بما يستر العورة من ثوب غير مخيط يمثل الكفن عند أناس ، ومن المعتاد أن تجدد من يغسل ملابس الإحرام بماء زمزم موصيا أن يكفن بها عند مماته ويجدد في ذلك راحة للنفس .

شروط حياة حافلة بمجارب وأنواع من الصراع بين تجرد الانسان عند الميلاد وتجرده عند الموت قد يمر بالإنسان في ملابس الاحرام ، أما فكرة الموت عندي فلم تخامرني إلا حين كنت أتذكر والدي - رحمه الله - طائفا بالبيت عامنا الماضي أو حين يصلي على الميت الحاضر بالمسجد الحرام . الآف يصولون عليه وهم مطهرون ، وغالب الاعتقاد أنه مات مطهرا أيضا ، فأعظم

الناس ذنوباً من وقف حاجاً أو معتمراً وهو يحس أن الله لم يغفر له ، وقد قال رسول الله ﷺ « من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه (١) » ويقول عليه الصلاة والسلام : لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن (٢) ، وعنه ﷺ أنه قال قال الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني ، والله لأفرح بتوبة عبده من أحدكم يحد ضالته بالفلاة ، ومن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باحاً ، وإذا أقبل إلى يمشي أقبلت إليه أمراً (٣) .

ومن ابن عباس رضي الله عنهما : بينما رجل واقف مع النبي ﷺ بعرفة إذ وقع عن راحلته فوقعه فقال للنبي : اغسلوه بماء وسدر وكفوه في ثوبين ولا تمسوه طيباً ولا تخمروا رأسه ولا تمنعوه فان الله يبعثه يوم القيامة ملياً (٤) .

الله أكبر .. أى سعادة يقبضه الأحياء لها ؟

لقد كنت ممطناً حياة في هدوء واستقرار نفس وملابس الإحرام في نظري مثل لبساطة الحياة وما ينبغي أن يكون عليه المسلم من شعور التساوى مع المسلمين غيره لا علو ولا فساد في الأرض .

(١) صحيح مسلم ١٠٢/٤

(٢) «مسلم ١٦٥/٨

(٣) «مسلم ٩١، ٨

(٤) مسلم ٢٣/٤ ، البخاري ٢٢/٣ - وقصته : دقت عنقه فمات .

إن العمرة حجة مصغرة - إن صح التعبير - ^(١) وقد قال الله في الحج :
(وأذن في الناس بالحج ياتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق
ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ^(٢) على ما رزقهم
من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا نفثهم وليوفوا
نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق) ^(٣)

ففي هذه الآيات من أمارات الحياة الدافقة أنهم يشهدون (منافع لهم) ،
هذه المنافع تختلف باختلاف الأفراد ، قد تكون في المعرفة لأحوال الناس في
هذه البلاد ، قد تكون التجارة . . . أو قد تكون أى شئ . ولكن لا بد أن
يعطف على هذه المنفعة المعنوية أو المادية ذكر الله ، وشكر الله (على ما
رزقهم من بهيمة الأنعام) ثم نقول الآية : (فكلوا منها) مظهر حياة (وأطعموا
البائس الفقير) تعاطف وتراحم (ثم ليقضوا نفثهم) أى يزيلوا أدرانهم من
قص الأظفار والشارب وحلق الرأس (وليوفوا نذورهم) يؤدوا ما
نذروا من عمل البر (وليطوفوا بالبيت العتيق) أى الكعبة بما في هذا الطواف
من معنى السعى والفتوة .

فليس في هذه الآيات ما يشهد إلى الموت ، ومع ذلك فإن الأحرام للحج
والعمرة يوحي إلى نفوس بفكرة الموت لأول وهلة بالنظر إلى ملابس

(١) كانوا يسمون العمرة الحج الأصغر ، ويوم الحج الأكبر هو يوم
عرفة أو يوم النحر للنهاية ٤ / ١٤١ .

(٢) وقت أداء الحج أشهر معلومات هي شوال ، وذو القعدة وعشر من
ذي الحجة ، ولا يجوز الإحرام بالحج قبلها .

(٣) الحج ٢٧ - ٢٩ .

الإحرام عند الرجال ولكن هذه الفكرة تغيب حين النظر إلى ملابس الإحرام للنساء فهي الملابس العادية .. بيضاء تدل على نقاء النفس، ويستحب الجديد فيها بما يدل على الإقبال على الحياة .

ولاشك أن فكرة الموت ترد على الخاطر كهيئة أن تجسمل الإنسان يعيش حياته نحاسيا نفسه بدقة ، وهي جذيرة بأن تجعله يحترم الآخرين إذا ظن بهم الموت القريب ويعطف عليهم .. قدسية الموت تنفع الأحياء حين يعتبرون بها .

اليوم السادس:

يوم عادي .. في بهجته وروائه .. المسجد الحرام يشدنا إليه ، لانطاوعنا قلوبنا على الرخيل عنه ونتمسور كيف سننقذ ثواب المسجد حين السفر إلى القاهرة .. ها نحن نسمع الآذان في المسجد الحرام فيمخطر لنا المؤذن الأول بلال بن رباح ، عتيق أبى بكر الصديق ، إذ أمره الرسول في غزوة الفتح أن يصعد على ظهر الكعبة بالآذان .

كنت أود زيارة للناسك : منى وعرفة ومزلفة وهي شرقي مكة ولكنني قد حضرت بها في رحلتي السابقة ، وجوار المسجد أولى أن نلزمه .

في المساء حركة نشطة في المحلات التجارية، والأضواء الباهرة في الشوارع تجعلك لا تحس فرقا بين ليل ونهار ... أدخل أحدها فما يلمحني البائع حتى يطلب إلى برفق الخروج .. المحل مخصص للسيدات ، معي شقيقة .. فيقول : المطاوع بكلمني .. من المطاوع ؟ إنه رجل للحفاظ على الآداب ، لقد جاء

فعلا بزيه الرسمي المميز بجاكت « كاكى » .. وقف خارج المحل هادئا غير متكلم ، واكتنه مرهوب .. الثنيات والذسوة يرفعن جزءا قليلا جداً من الخمار ريشما يميزون الأصناف لونا وجودة ثم ينزلنه ليفطى الوجه كله ويعاون الحركه نفسها لصنف بخديده .

وممنوع على النساء أن يقسن الملابس داخل المحل ، بأخذنهما البيت وعلى المحل التجاري أن يغير الصنف اذا لم يطابق المقاس ... لقد أخذحقه ومع ذلك فطبيعة الأمور تلزمه أن يبدل الصنف .. وياعبر التاجر على امرأة — على تصحبها — تتألق في زيتها ، فتتألق في الاختيار .

اليوم السابع :

أستقل عربة أجرة إلى جدة للتأكد على موعد سفرى حيث المطار وشركه الطيران ، يحظر بالذهن ما نتألف منه السعودية اتى تبلغ مساحتها ٣٠٠ ٢٥٣ كم^٢ من أقاليم نجد والحجاز والحسا وعسير ، وصحراء النفود في الشمال ، والجهات الجنوبية القريبة من الربع الخالى بينما يبلغ عدد سكانها نحو سبعة ملايين أو أكثر بقليل فنقارنها بمساحة مصر وهى نحو مليون كم^٢ وعدد سكانها يربو على الثلاثين مليوناً . لقد تذكرت ما ورد فى كتب التاريخ أن زعماء قريش جاءوا النبي يشكون من أنه « ليس من الناس أحد أضيقت بلدا ، ولا أقل ماء ، ولا أشد فيشا منا » ^(١) ولكنها الآن فى مصاف الدول الغنية .

وفي هذه البلاد يستخرج الذهب من « مهد الذهب » عند منتصف الطريق بين مكة والمدينة . وهي غنية بالبتروول في « الضهران » قرب القطيف جنوبا على الخليج العربي ، وتقوم آلات تكريره في رأس التنورة الواقعة على الساحل .

ويعتبر إقليم الحسا أكثر الجهات خصوبة لما فيه من عيون الماء وهو ينتج أجود أنواع البلح بوفرة . فضلا عما يزرع في هذه البلاد من فواكه مثل الموز والمان ، والقثاء . . وما يصدر لها من بضائع من اليابان ، هونج كونج ، تاوان ، باكستان ، سوريا ، لبنان ، ألمانيا الديمقراطية .

وقد شاعت العناية الإلهية أن يطلق اسم هذه البلاد منسوباً إلى عبد العزيز بن سعود منذ سنين عدداً^(١) ، الذي استولى على الحجاز سنة ١٩١٦ وكان سلطاناً لت نجد وتوابعها وأعلن أن لقبه الرسمي « ملك الحجاز ونجد وتوابعها » وفي سنة ١٩٣٢ أعلن هو تعديل اسم المملكة إلى « العربية السعودية » .

نعود إلى مكة حيث نمضي اليوم كله بها وفي الليل نستقل عربة أخرى إلى جدة مع بعض الرفاق . . وذلك بعد طواف الوداع بالبيت العتيق .

ها هي الطائفة التي نقلنا إلى القاهرة بعد ساعات . . مقاعد كثيرة قد تخلف أصحابها . . لابد أنهم سيتطلون إذا سألتهم جهات رسمية بهال مشكلة . .

(١) أعلن مقتل الملك فيصل بن محمد العزيز ماعل المملكة العربية السعودية في ١٢ من ربيع الأول ١٣٩٥ - ٢٥ مارس ١٩٧٥ برصاصه من فيصل بن مساعد ابن أخيه والعالم الإسلامي يحتفل بذكرى المولد النبوي الشريف .

ومخالفة ، ولعل السبب الحقيقي عدم استطاعتهم أن يتركوا الأرض المقدسة »
أرض المعجزات بسهولة :

وفي مطار القاهرة تعرض الحقائق على مسئول الجمارك . . سيدة تبدأ في
المغالطة في تقدير قيمة ما معها . . معها كميات تجارية من صنف ما ولكنها
تقول أنه لا استعمالها الخاص فأقول في نفسي يغفر الله للناس إذ يخلطون عملاً
صالحاً وآخر سيئاً . . وقد وعد سبحانه أن يتوب عليهم :

المقالة الخامسة

أيام في رومانيا

كان موعدنا إلى رومانيا في ٣ سبتمبر ١٩٧٤ م رحلة جماعية خمسة عشر يوما . تمط الطائرة بميناء أنينا الجوى فنزل إليه عابرين Transit ، يراحدنا بعد الآخر على ممر يهتز بوقع الأقدام .. يضيء مصباح صغير عند مرور بعضهم فيسأله العامل المختص إذا كان يحمل أشياء معدنية ، فيخرج إليه بعض العملة المعدنية ويسأله أن يمر بمخافاة فيضيء المصباح أيضا فيسأله إذا كان معه معدنيات أخرى فيظهره على سلسلة مفاتيح .

ويتسلم الراكب عامل آخر بالمطار فيمر ربله على جسمه يتحسس إذا كان معه آلة حادة أو سلاح .. وبعد دقائق نعود للطائرة . ترانا نزلنا هذا الميناء للتفتيش وحسب ؟ يتكرر التفتيش بمطار بوخارست حيث تبعد عن أنينا ١٢٣٢ كم .. تمور منا النفس فنكتب ثورمها فتعفن غرباء حقيقة .. غرباء اللسان وهذه أصعب غربة فيما أرى . إنه وسيلة التعبير العاقلة . الجمل لك كلها - فيما قيل - تفعل ذلك بعد تكرار حوادث اختطاف الطائرات فيما عدا جمارك مصر . التفتيش الذاتي فيها بشبهة قوية ، وإذا أسيمى استعماله كان المسمى موضع لوم .. أول صورة يتلقاها الزائر عن مصر التسامح معها قيل عن تصرفات مشينة أحيانا .

نحن الآن في رومانيا .. في عاصمتها .. مدينة أنشئت في قلب غابة .. هكذا تبدو فهي بلد زراعي كمصر ولكن مساحتها أقل من ربع مساحة مصر لمساحة مصر مليون كم^٢ ، ومساحة رومانيا ٢٣٧٥٠٠ كم^٢ ، تقع جنوب شرقي أوروبا بين خطي عرض ٤٣° ٥٧' ٤٨° وخطي طول ٢٩° ٤١' ٢٠° غربا .

وتتحد رومانيا من الشرق والشمال باتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية،
ومن الغرب بالمجر، ومن الجنوب الغربي بيوغوسلافيا، ومن الجنوب ببلغاريا
ومن الجنوب الشرقي بالبحر الأسود.

نقضى ليلتنا الأولى في بوخارست بفندق «مودرن» - هكذا اسمه أي
حديث - إن له - مع الأنفراج السياحي الذي بدأته رومانيا منذ سنين قليلة
إيماء طيباً، وهو مريح بعدلٍ نهار طويل بدأه أكثرنا من التفتيح خوف فوات
الميعاد المحدد للطائرة وما يسبقها من إجراءات.

إطلالة من شرفة الفندق تلاحظ معها الحضرة تسود المدينة من عل. أشجار
باسقة، زهريات في الشرفات.

أما الوجه الحسن الذي نلعمه في البشر فليس للغريب - في نظري - أن
يغفل أن كلهم أوفى كل الأحيان، فالرومانيون مزاج عناصر سلافية وبجارية
وألمانية وتركية مع الرومانيين الأصليين - سكان ولاية داسيا الذين يتحدرون
من عائلة هندو أوروبية عظيمة (١)

وعدد سكان رومانيا نحو عشرين مليوناً (٢) تتكون غالبيتهم من الرومانيين
٨٧٪، وبجانبهم يعيش أيضاً مجربون وألمان وجنسيات أخرى. أما عدد
سكان العاصمة فهو نحو مليون ونصف (٣)،

(١) وقد هزم الرومان ولاية داسيا بعد عدة حملات عسكرية في السنوات
المبكرة من القرن الثاني.

(٢) حسب تعداد يوليو ١٩٧٢ ٢٠ مليوناً و ٦٦٠ ألفاً.

(٣) » » » ١٤٧١ : ١٨٨٣٢٨ نسمة.

وهم يبض البشرة ولكنه - في نظري أيضا - بياض « واقف » - إن صح التعبير - ليس فيه نصاعة أحيانا ، وبعضهم يميل إلى السمرة - حتى انه يصب أحدهم أو إحداهن من مصر جمالا أو خفة دم ، وإن لم يخل هذا الجمال واللك الخفة من لمسة حزن تعبر عنها العين في بعض الوجوه .. هل هي وطأة الحياة ؟ ربما ، هل أن جيل الشباب يبدو أكثر تبسا وجمالا .

ونمثل المرأة ٤٥٪ من القوى العاملة في رومانيا ومعنى ذلك أنها تسام بوفرة في بناء المجتمع وتقدمه ، كما تعمل على زيادة النسل ولا يسمح لها باستعمال وسائل منع الحمل الطبية إلا بعد إنجاب أربعة أطفال .

ونمة مزارع مخصصة لغذاء الأطفال تترك دون تروهدا بالكميات لا تخرج أفضل طعام للأطفال (١) مظهر طيب للعناية بالطفولة .. حماد المديبول .

وإذا تحدثت عن الجمال . والمرأة العاملة أذكر فتاة بفندق أقيانه في مامايا باهرة الجمال بحق يسألها صاحبي العجوز « ثمانين سنة » - وقد أعجب بها - من أي بلد أنت في رومانيا ؟ فتقول : كونسانتسا ، فيقول : أكل فتيات كونسانتسا جميلات هكذا ؟ فتبتسم في خفي يزيد جمالها ، ويخشى العجوز الحرج فيقول مشورا إليه : هذا للشباب أعجب بك فتبتسم ثانية قائلة : إلى معبة ، طوال الليل أحمل في الفندق .

وتثور في صاحبي ذكريات سنين غربت قضتها في رومانيا .. في كونسانتسا فيطلب العوجه إليها ، إن أينما وبين مامايا ثلاثة كيلو مترات شمالا ، وعدد

(١) من حديث مع السيدة : إلينا شاوشيسكو .. قرية الرئيس الروماني .
جريدة الجمهورية في ٢٩/٨/١٩٧٤ .

سكانها يزيد على الألف جليل .. أتراء بطن الجبال فيهم جميعا ؟ لا بأس فالمحروبة هي العالم كله في نظر المحب .

ومامايا بينها وبين بخارست ٢٣٤ كم وهي صر كز اسميها عالمي هكذا تصنفها كتب الدعاية وكتب الجغرافيا ، تقع بين مياه البحر الأسود الزرقاء والمياه العذبة لبحيرة Siutghiol ولكنها عندى ليست بالشاطئ الذى لا يقارن . فلا سكندرية تحظى يشواطىء تفوقها جمالا كالمنورة والعجمي ، ولكنها الدعاية الواسعة التى تجعل وفودا أوروبية ضخمة تستجم بها .

وقد أقننا فيها ستة أيام نزلت شاطئها - البحر الأسود - من بين .. الماء أغلظ كثافة فيما نحس من مياه البحر الأبيض المتوسط . ذرات سوداء تعلق بالجسم قادمة من كونستانسا حيث قرسوا البواخر بهذا الثغر الهام ، ومدخل الثغر منخفض يربو المدينة خلفه على ، بسوة ، وقد أنشئ به ثغر اصطناعى به تيسيرات لشحن الحبوب إلى روسيا .

شئ آخر في مياه مامايا . أجسام هلامية بيضاء تضغط عليها بأصبعك فتتمزق .. إن الأطفال يعيشون بها ولكن البحر خال من الصخر ، قليل الثغور قريباً من الشاطئ ، فالناس تبعده فيه ولكنها لا تقوم ولا تمكث طويلا .. إن منهم الاستلقاء على الرمال .. ملأه نفرش عليها أو حشية من المطاط .. قداما تجرد شمسية إنهم يحبون التعرض للشمس من بعرض لها ظهره أو بطنه . ماداً رجله أو ثانياً الساقين . رجالاً ونساء في ملابس البحر ، أما الأطفال فقد تجرد بعضهم خلع لباس البحر ، وظل كما ولدته أمه .. قد يحدث هذا المنظر عند فقراء الناس في مصر ، ولكنها في المجتمع الأوربي تقوم على فكرة

عدم إبراز أهمية الأعضاء الجنسية بتغطيتها وقد أسماها القرآن «سواة» (١)
وأمر بمواراتها، وعند التأمل لا يمكن أن تستوى اليد مثلاً بهذا الأعضاء .

وقد نجد من يستمتع بحمام طين . أو قل طين وشمس فهم يضحون على بعض
الأعضاء طبعاً يشفيهم من أمراض الروماتيزم والنقرس .

هذا المنظر لا نجد في أيامنا بشواطئنا بالاسكندرية مثلاً ولكن جالينوس
يحكى أنه رأى بالاسكندرية مطحولين ومستسقين كثيراً يستعملون طين مصر
ويطلون به على سوقهم وأفتخاذهم وسواعدهم وظهورهم وأضلأعهم فينتفخون
به منفعة بينة قال : وعلى هذا النحو قد يقع هذا الطلاء للأورام العنفة والمتزهلة
الرخوة . (١)

الهواء نقي عذب ، ممتع حقيقة ، لاضوضاء ، وموسيقى الجاز الصاخبة ليست
من الضوضاء .. في رومانيا .

ومما ياكلها شاطئ . أو بتعبير آخر امتداد للشاطئ ، فمن الممكن
السير بملايس البحر فيها جميعاً إلى الفنادق أو المتاجر ، وقد رأيت من يستلقي
على جزء أخضر من أرض أمام الفندق .. لقد غضب المرشد من إفساد خضرة
الأرض ، فلكي نخضر بذل فيها جهداً ، وأنفق ماء ، ولذلك خسارة في نظره
إفسادها بالنوم عليها . ولكن السائح ضيف مدال .

وبزین المنظر ثماثيل متعددة نین خطوات وأخرى ، لقد شد انتباهي منها

(١) زاد المعاد لابن قيم الجوزية ١٢٥/٣ . ط . المصرية بالقاهرة

تمثال قريب من فندق « سلكت » أم تحو دلى طنفا . . إن « مامايا » في اللغة الرومانية معنادا الجدة . . بعض الدوافق بين الاسم والتمثال قلت ليت التمثال يكون أكبر التماثيل الموجودة في مدخل « مامايا » .

ومن المصايف الرومانية جنوب كوستانتسا : إفورى على بعد ١٤ كم ، والمياه ببحيرة Fechirghiol شديدة الملوحة كوستنسكى على بعد ٢٥ كم ، لبين « إله البحر عند الرومان » ٣٩ كم ، جويتر « كبير آلهة الرومان » على بعد ٤٠ كم ، فينوس ٤٢ كم ، ساتيرن ٤٦ كم والثلاثة الأخيرة تقع جوار مدينة كلانيس القديمة في القرن السادس قبل المسيح أو « مانجاليا » حاليا .



استبدال العملة : ولعل من أسوأ الأمور أن تكون بين خضرة وماء ووجوه حسان تم تعترضك مشكلة نقدية . . إن القانون في رومانيا يمنع إدخال اللوى - العملة الرسمية للبلاد - إليها كما يمنع إخراجها منها فيحذرنا المرشد السياحى من التعامل بالعملة في السوق السوداء كاشفا عن حيل تجارها فقد يعطى أحدهم عملة قديمة ألفى العمل بها ، أو أن يطوى ورقة العملة ومع سرعة العد قد لا تبين أن الورقة المحمولة هى نصف ورقة في الحقيقة إلا بعد أن ينصرف الفاجر . . وقد كان تحذيره في موضعه . . في كوستانتسا مجموعة من تجار العملة تلتقى بنقر من المصريين - وهذا يتكرر مع الغزاة عامة - قدخل معها مدخل فندق . . سعر التحويل مقر ، يقرب من ضعف قيمة

(١) وذلك في سورة الأعراف كما في الآية (٢٢) « فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوء أنها وطفقا يخصمان عليهما من ورق الجنة » ونرى أن سلوكهما هذا هو سلوك الفطرة .

التحويل من البنك (١) ، والتجار يريدون تحويل المبالغ الضخمة ، أما البسيطة فينصرفون عنها . . والسبب أن تستغرق العملية وقتاً ، وتضطرب الأيدي ، والنفوس فهذه مخالفة جسيمة ، وأثناء العد يصبح العاجر : يو ليس . ويحرق مع نصيبه من المال الحرام .

نعود إلى مامايا . . منظر النصب يتكرر في حديقة . . في جانب من شارع . هذا شاب ضحية غير له تاجر العملة مبلغاً ضخماً ، عده أمامه وأطمأن إلى صحته ثم يعين أنه بخفة يد بدل اللافاة بفقرها . . فنقص المبلغ عشرين جنيهاً استرلينياً . . إنه ينتظره ليقبض عليه . . سداجة أخرى هذا الغن ، إنه ان يظهر في هذه المنطقة إلا بعد أن يختفي منها السمائع إلى باد آخر . .

هذه امرأة تذكر أنها من روسيا تقوم باستبدال العملة أيضاً بصوت خافت جداً . . أنراها قطعت ١٩٦٣ كم هي المسافة بين موسكو وبوخارست لهذا العمل هل وراها عصاية من الرجال ؟ إنها لا تحول غير الدولارات فلما سئلت تحويل الاسترليني ذهبت تستشير وعادت مرحة . . هذا شاب يريد العملة الأجنبية لشراء السجائر من محل لبيع المستورد بالدولار ، فتمه محلات لا تباع الا بالعملة الصعبة ، ومحلات أخرى قليلة جداً تقوم بالتخفيض لمن يحمل إيصال استبدال العملة من البنك الأهلي الروماني ، ويشتري بمائة لوى ، وأكثر بتخفيض ٢٠٪ .

(١) الدولار الأمريكي = ١٤ لوى Lou والاسترليني = ٣ لوى تقريباً واللوى = مائة باني Bani وهي عملة رومانية أيضاً .

في السوق : إن الأسعار تكاد تتفق وما للفناء بمصر في المصنوعات الجلدية مثلا ، والمأكولات عامة ، فبعضها يزيد زيادة كبيرة كملايس النساء حتى كانت موضع الدهش منا في بلد اشترأكي (١) ، وأعمال الإبرة والتطريز جمال تعديز به بلوزات الحرير والمعاطف الصوفية في رومانيا .

ولما كانت محلات البيع ملكا للحكومة بوجه عام فإن الثلاث أن تجد في واجهات المحل ما يدل على تخصصه في الصنف الذي يبيع مثل كلمات : « خبز » ، « خضراوات وفواكه » ، « بلاج : أى مشتريات الصيف . آدم Adam أى ما يخص بملايس الرجال » و Eva دون ذكر أسماء الأفراد .

على أن هناك بعض أفراد يبيعون المصنوعات الخشبية كأطباق الزينة وتجهدهم المساومة في حالات قليلة جداً . وفيما عداها فإن الثمن محدد في مدن رومانيا جميعا مما يدفع إلى اطمئنان المشتري . وغالب هؤلاء من سكان الجبال يصنعون في الشتاء ويهبطون إلى المصايف للسائحين ، وقد تجد منهم من تعجبه مظلة ساحل أو سوار ذهبي في معصم أجنبية ، فيتهاونون توسلا لشراؤه بشمن زهيد ، وقد رأيت من أعجبت بصورة انهر النيل فاذا هي تضعها بالمحل في مكان بارز شاكرة لرفيق دين أن تستأذن أول الأمر : ألفة محبة لاشك .

وترجع شهرة رومانيا بالحرف اليدوية التي تتميز بالألوان الدافئة والعميقة كالنقش على الأيقونات الزجاجية إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وهم يذكرون أسماء لمشاهير الحرفيين : ماتى تمفريا ، سافو موجا ، لون بوب .

(١) جاكيت حريري مطرز مثلاً بـ ٤٠ جنيناً مصرياً ويزيد .

والوقوف في صفوف شيء عادي ، لا يثير استمزازاً أو ضيقاً كما ترى أحيانا في مصر لقد تعود الشعب النظام ... أما عندنا فبلدنا رخاء منذ قديم فإذا شح وجود صنف بسبب الحرب تكالب الناس على المعروض منه خشية فوات الحصول عليه ، ويكثر النهازون ، ويريد الاضطرار في الصنف ، ويفلو الضراخ في رغبة جائحه طامعة .

والصنف هناك من اثنين فصاعداً وقد رأيت رفيقاً رحلة ينظر ان الى المعروض أحدهما خلف الآخر بقليل ، وكاد الأخير يلطم بالصنف الواقع للشراء فأتت امرأة لتقف وراء زميلنا المصري ظناً منها أنه في الصنف ... للقائمة عجيبية .

وطريقة الشراء في مجمع استهلاكي للمواد الغذائية مثلاً أن تدخل من باب فتجد سلالاً من بلاستيك صغيرة تتناول إحداها وتجول في المجمع تأخذ منه ما تريد من شاي - وهذه الكلمة بالرومانية أيضاً منتقلة من لغة جزر ماليزيا التي كانت المصدر الأول لهذه المادة - قفل أسود - معليات .. وغيرها وبكل منها الثمن .. وتلجج إلى الخزينة فيجمع لك الخفض ما يدفع دفعه عنها جميعاً ثم تفرغ السلة وتضعها قريباً من باب الخروج وغالباً ما يكون المشتري يحمل حقيبة خاصة لوضع حاجاته بها دون أن يقوم المحل بعينها ربما توفيراً للورق .

وبما يتصل بالنظام حسن الذوق ، بل إن الذوق هو الأصل ، لما احتسكت عذراً يسأل في الطريق مزدحمة حتى كان بادئاً بكلمة الاعتذار ، إنه ذوق مظهره المتميز الجيد .

وفي الحدائق العامة من الدوق والتسويق ما نشير اليه ، إن انتشار التماثيل فيها عمل طيب يبرز القيادة التي حكمت وشكلت من سلوك الناس وطبائعهم وأفكارهم

الشيء الذي لا ينكر ، وقد شدني في كونستانتسا أن أحرف شيفان « أفيديو »
الشاعر الروماني رافعا هامته وقد وضع ذقنه وصدغه في كف يسراه مسافة
إلى اليمنى ينظر ويفكر بينما مررت بنائيل الساسة وقد كتب على قواعدها
ستو المولد والوفاة دون انجذاب إليها .

دور العبادة : وفي ميدان « أفيديو » بكونستانتسا أو قريبا منه مسجد
مسجد (١) وكنيسة ومتحف يونانيا وآخر رومانيا ، ولم نجد غير هذا المسجد
وآخر في « مانجاليا » مبسط في بنيانه كما هو مبسط في تعاليمه - أما العاصمة
نفسها فليس فيها مسجد وما أن ندخل المسجد في مانجاليا حتى يتلقانا الخطيب
بكلمات مشتاق أن يقولها لكل أحد دون أن يعرف دينه .. هي شهادة
التوحيد ومحمد وعمر وعثمان وعلي والحسن .. ثم لا يعرف غيرها بالعربية
فإن شئت كلك بلغته التركية . وقد أخذنا المرشد على عجل دون أن نتمكن
من صلاة الجمعة فيه على قرب مؤعدها ، لقد أحسست منه بعض التعصب إلا
يدلنا على شيء من هذا المسجد غير أن بنته امرأة تدمى « أسمان » في القرن
الرابع عشر لقد قلت « التعصب » ربما ظلمته بهذه التهمة ، ففي براشوف ندخل
الكنيسة الموداء - هكذا اسمها - متى أنشئت؟ سنة ١٣٨٣ م ثم لا يزيد على
أنها سميت بذلك لحريق أصابها في القرن السابع عشر .

(١) ذلك أن كونستانتسا وما يليها جنوبا جزء من (دبروجة) - هضبة
بين الدانوب الأدنى واليهر الأسود - التي كانت تحت حكم الأتراك . وقد
أعلنت بلغاريا استقلالها عن تركيا سنة ١٨٧٨ م واسعولت رومانيا على شمال
دبروجة ١٨٧٨ م وعلي جنوبها سنة ١٩١٣ م بعد هزيمة بلغاريا في حرب البلقان
الثانية . وبالرغم من هزيمة بلغاريا في الحرب العالمية الثانية فقد استردت
دبروجة الجنوبية سنة ١٩٤٠ م .

وعلى بعد نحو مائة كيلو متر من سيبي Sibin في طريق زراعى بجبل دير
كوزيا Cozia الذى أنشئ سنة ١٣٨٦ م يدعى المرشد يدخل معهما دون إيضاح
عابه من صور في القرن السابع عشر ، ونحطاطات مسيحية ، ومبخر ، وكأس
المناولة .

ربما كان السبب خفة العقيدة الدينية عنده أو في شباب الغرب عامة ، أو
الجهل بأخبار هذه الآثار وإن كانت ملاحظتى في دير كوزيا أن التأثير الدينى
بدا واضحا جدا في وجوه الشيوخ الذين كانوا يصلون يوم الأحد . ير كعون ،
يكون ، في شغل عن المار أمامهم أو جوارهم ، ولكنك قد تشغل عن النظر
إلى الكنيسة بالنظر إلى هؤلاء . إنهم يهيمون من الله . المجيب المضطرب إذا
دعا .

إن حرية العبادة مكفولة الافراد وأكثر للكنائس انتشارا في رومانيا
الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية .

الشباب : وفي الصبورة المقاتلة . في الحدائق والمتنزهات قد نجد شابات يخاصر
فتاة .. شئ عادي أمام المارة ، ولهذا لا يلتفتون اليه ، على غير الشأن في البلاد
الإسلامية عامة ، إن لمسة يد فتاة من أجنبي لا ترضى بها فتاة محترمة ، أمام
العيون خاصة .

واحد من المناسب أن نشير هنا إلى أن رومانيا كانت سباقة في كشف
العقار الطبى ٣٥ وكان له دور وشهرة مقترن بصاحبة الاختراع المذكورة
الرومانية أنا أصلاق فهذا العقار يعهد الشباب إلى الشيوخ .. أمنية غالية
من القديم .

وقد قام معهد أبحاث الخلايا الألمانية السويسرية بإضافة أنواع البنية من فيتامينات وأملاح وغيرها كما طوّرته العائلة الرومانية وأصبح اسمه أكس ، ولا يزال الاهتمام بهذا الأمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فالشباب والجنس حياة كثير من الناس أو قل هي الحياة ، ومن أمثال الرومانيين ما ترجمته الملابس والمحبز والجنس هي الحياة الرغيدة بل إن كلمة المحبز تكاد تنفق في نطقها وأعضاء الجنس في اللغة الرومانية فيما جدني أحد المصريين . . إلا إذا كان أشبه عليه فكشف عن أعماقه .

وفي أحد الفنادق بما مايا تستقبلنا حاملة عجوز في مرح الشباب فكان أول سؤال : هل أنت عزب ؟ هل ستقوم بالسباحة في البحر ؟ فأخبرها : نعم فتزد في ابتسامة : Good ! مع غمزة من عينها أفهم منها : إنني «أعرف» شقاوة الشباب . وتلبس في مرور محضرة فوطاة وبعض المنشرات السياحية . فأسأله بالإنجليزية إذا كانت تحضر أيضا Soap فلا تفهم معنى الكلمة فأقرب من الحوض مع حركة من المستكشفين تشير إلى غسلها فتنتطق على الفور صابون . هكذا كما تنطقها بالعربية ، نعم إنها بالرومانية أيضاً . مع ضمة من الشفتين أكثر .

* * *

اللغة الرومانية .

وتبين لنا أن كلمات نعرفها بالعربية هي أيضاً في اللغة الرومانية ككلمة شراب التي تنطقها بالعامية وتقصدها الجورب هي عندهم بالمعنى نفسه يضم الشين ، وصندل وحمال Hamal وخربطة Harta وكبريت .

ويطلق على محل المجابر Tutungerie ، وتكون بالتركية تعنى الدخان .
ومن الماء كولات فاصويا Fasole ، أرز orez ومن أثاث المنزل إبريق
un ibric ، ودولاب un Dulap ، كنية O canapsa - وإذا كانت اللغة
الرومانية لاتينية الأصل (١) فقد اغتنت خاصة بعناصر سلافية وقد تسرب إلى
لغة رومانيا عدد كبير من مفردات الشعبين الصقلية والمجرية لما أحاط بها
من جميع جهاتها من أمم صقلية اللسان أو مجرية على وجهي أن أخواتها
اللاتينية الأصل (الفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية . الخ ...) لم
تكند تأثير بهذين اللسانين وذلك لأن رومانيا قد انعزلت عن أخواتها
اللاتينية (٢) .

واجدها من القرن التاسع عشر اقترضت الرومانية عدداً من الكلمات ذاتها
الاستعمال العالمى للضرورة العامة والفنية .

بوخارست : Bucuresti

نعود إلى بوخارست تلك المدينة التى تنمو أفقياً ورأسياً . إن عمرها الذى
كثبته الوثائق كما يقول المرشد السياحى أكثر من خمسمائة عام واكتنفا تبدو
شابة فى شوارعها العريضة التى تكثفها الأشجار ومبانيها الأنيقة التى لا تجور
على الرقعة الخضراء ، فالمساحة المخصصة للمباني ١٦٢ كم^٢ أى تزيد على سدس
مساحة بوخارست بقليل (٣) وهم يميلون لهذا الفرض إلى الارتفاع فى المباني
حيث يوفر كثيراً من التكاليف ، ويوفر كثيراً من مشكلات المرافق العامة
والمواصلات . ويثبت سعر الأرض .

(١) بمعنى احتفاظها بالتركيب النحوى والمفردات الأساسية للغة اللاتينية .

(٢) اللغة والمجتمع - ذكور على عبد الواحد والى - ط ١٩٧١ . القاهرة .

(٣) مساحة بوخارست ستتمائة كيلو متر مربع .

جولة حول المدينة . مبنى الجامعة ، معاهد ، سف ، فنادق ، مبنى اللجنة المركزية العليا للحزب الشيوعي ، وأمامه فضاء في الطريق منعنا الشرطي أن نعبث عليه . . وفيها من دور السينما نحو سبعين فضيلاً من المسارح وصالات الحفلات الموسيقية وأنديةها الليلية الساهرة حتى قبيل الفجر .

إن بوخارست على بعد سبعين كيلومتراً من الدانوب ، ومائة كيلو من مرتفعات الكريات وفيه كرم المرشد أن نهر الدانوب يعتبر ثاني نهر في العالم ، (لهله نسي نهر النيل فهو الثاني بعد الميضي) ، وهو يمر بمائتي دول ، ولكن أكثر ممروره برومانيا بطوله قدره ألف وخمسة وسبعون كيلومتراً .

سيبي : Sibiu

وكان من برنامج الرحلة أن نمضي أياماً في بوخارست ثم نزور الجبال الرومانية ، ولكن بوخارست فيما قيل ليس فيها أماكن خالية بتفادقها ، لقد فتق ذهن المسئولين على أن نقطع كيلو مترات عديدة . . عديدة إلى سيبي أهم مدن حوض ترانسلفانيا في رومانيا لماذا ؟ لكي نبيت فقط . إن هذا السبب لا يفتح فريقي الرحلة ، فيغورون فلا يدخل في ذهن مثلاً أن ينقل سائح من القاهرة إلى الاسكندرية - والاسكندرية ما هي - للسبب فحسب ، لا بد أن يستمتع بجو مختلف عن جو القاهرة وآثار لا يراها فيها أو وسائل ترويح لا يجدها في القاهرة . . أو غير ذلك مما يشير تطلعا ، ولكن المرشد لا يظهرنا على شيء من هذا في سيبي . . إنما هي جولة حرة .

وتسوقني قدماي إلى حيث لا أدرى الهدف إلا أن أمضي وقتاً في بلد غريب :

مشيناها خطي كتبت علينا . . ومن كتبت عليه خطي مشاها

هاهو شرطى قد رأى منى تأمل الغرب فيستوقفنى مستظها : إنجازى
أنت فأقول : مصرى ، فرفع حاجبيه دهشا قائلا : good .

إن كلمة الاستعسان هذه أحس بها تملأ صدرى إنشرا ما هل يعرف
الشرطى انتصارنا في رمضان ؟ هل يعرف حضارتنا ؟ لابد أنه يعرف شيئا
من هذا .. قد يكون فلها كلمة مازة تحية لسائح . ولكن هذا الاحتمال لا
يمهد إلى ذهنى في ذلك الوقت ... بل إنى أحس أن حراسه وجهت إليه
على بعد كيلو مترات حتى رأيت عملة المسكة الحديد فتذوب مشامرى في
الناس .. يقطعون للتذاكر ، وقوف وجلس ينتظرون ، يهرعون ، وحدى
غريبا لا يفهمون منى لغة ولا أفهم منهم ، ولا أحاول . فالنظر وحده متعة
في بعض الأحيان .

هاهو بالعم لورق القصير يوطن بلغة لا أعرفها ولكن يصدر بين الحين
والآخر عن كلمة جميل وقعها عندي « صلالة اللبس زين » وقد أكون في غير
موضعها ، لكنه في ندائه الهادئ يستوقف بعض المارة لشراء بشىء من
الأملى ، قد لا يكسبون فونصرفون وفي النفس حسرة ما أغنام عنها لو لم يؤمنوا
بورق القصير وآمنوا بأنه ما كان لهم أن يخطئهم وقد يكون في الوجه أحيانا
ما يدل على عدم الاهتمام بالكسب . ولكن المشتري بعث .. أو يرحى فراغا
وجصب .

أدخل أحد المحلات لشراء الهدايا فيعجبنى توافق الجمال في البائعة والمبيعات
فتستأر لم ما تفر اللحن به . ولا تنسى سيمى من أجله .. وقد وددت
أن بعد حديث يبنى وبينها وهى تتحدث الإنجليزية بوضوح ، ولكن
حان موعد إغلاق المحل وغدا الأحد .. ووعدا لمغادرة سيمى .

في الكريات Carpathi :

ننطلق بسيارتنا إلى مناطق الجبال الرومانية :

١ - سينايا : نعلم بطلقون عليها في إعلالاتهم لوثوة الكريات ، ارتفاعها ٧٩٠ - ٩٧٠ متراً ، وهي على بعد ١٢٧ كيلو متراً من بوخارست ، وخمسة وأربعين كيلو متراً من براشوف ، وبها يتابع السياه المعدنية .

ولعل القارئ يشاهد إلى ذهنه مثلي حين يقرأ الحروف اللاتينية Sinaia أن المقصود شيء ينسب إلى سيناء مصر ، وقد قيل إن أحد نبلاء رومانيا زار سيناء سنة ١٦٣٠ م وأخذ للطراز المعاري لدير سانت كاترين فيها لبنى كنيسة على طرازها في بقعة من رومانيا أطلق عليها كلها اسم سينايا « نسبة إلى سيناء » (١) .

٢ - بريدهال predeal ارتفاعها ١٠٤٠ - ١١٠٠ متر ، وهي على بعد ١٤٧ كم من بوخارست ، وخمسة وعشرين كيلو متراً من براشوف .

٣ - بوينا براشوف poiana Brasov ارتفاعها ١٠٤٠ متراً ، وهي على بعد ١٧٥ كم من بوخارست وثلاثة عشر كيلو متراً من براشوف Brasov أخذت المراكز الصناعية الأساسية في رومانيا .

وفي برنامج رحلتنا زيارة قلعة Bran التي بنيت في القرن الثالث عشر بينها وبين بوينا براشوف خمسة وأربعون كيلو متراً قطعها السيارة في نحو ساعة من تيارها ، وبينها وبين براشوف ٢٨ كم وفي الطريق إلى القلعة قرية المانية تتميز بيوتها الواطئة وأبوابها المزخرفة ، وخوخة جدار الباب ، منطقة هادئة تدب الحياة فيها بنقر يبيع نماذج خشبية للقلعة وشيلان صوف مما يميز به سكان الجبال

(١) جريدة الأهرام في أول ديسمبر ١٩٧٤ .

وقد يختلف النظر في أيها أجمل جبال لبنان أو إيطاليا أو رومانيا
فبعضهم يرى الأخيرة أجمل وغندى أن يسد الإنسان الصنّاع أو ضيق له
جبال إيطاليا، وجبال لبنان إذا شئت بفتاة أنيقة رشيقة فحبال رومانيا قد
امرأة مترهلة الجسم، ما نحن نرى فيها قطارا للبضائع، ويوما متناثرة هنا
وهناك، من دورين .. تلك نظرتنا مربعة . وعلى البعد .

وعلى الجبل في الطريق إلى براشوف مساء تجمد المصابيح قد أضاءت
ككحبات من اللّاس مبعث ضوءها من البيوت والطرقات .

ونيت ليالى فندق Sport في بوينا — براشوف ، قريبا منه يوجد بحري
مائي أشبه بحوض سباحة كبير يستغل ماؤه في الزهرة بقوارب صغيرة وعمقه
نحو سبعة أمدار . وهو منظر فطري لا يتجدد فيه من صنع الإنسان شيئا يضاف
عليه جمالا .

وينتشر نوع من الشجر يدعى Brad يزرع خصيصاً في الجبال كما يقول
المرشد ويظل أخضر طوال السنة ولو نزل عليه الجليد ، فروعه أشبه بمروحة
هـ .

وقد أعجبت بمنظر لو وجدناه في القاهرة أمام فندق سياحي لا نفقده
الرائي انعقاداً مرة .. قطع من الغنم والبق والجواموس يرعى أمام فندق
Sport . . لقد وصلت هذا المنظر باليدنة العربية التي أوحى لزهيد بن أبي
سليم بقوله :

بها الغنم والآرام يحشين خلفه . . وأطرافها يهضمن من كل محتم

إنه يحدث من البقر الوحش والظباء خالصة البياض ، ولكن المنظر
أماننا قطع من الحراف يبضاء اللون .

إن وجه الشبه ما يحس به المرء في العصورين من البعد عن التفكير والسر
في تلقائية ، إنه إحساس مريح في بعض الأحيان ، ولكن لا يعيش به عظيم
في كل الأحيان ، كما لا يعيش أمة في إدار حديدي متعلقة عما حولها من
التقانات والنظم .

وقد أدركت رومانيا ضرورة الانفتاح على العالم فبعد أن كانت علاقاتها
سنة ١٩٤٧ مع خمس وعشرين دولة (١) نظمت علاقاتها مع أكثر من مائة دولة في
المجال الدبلوماسي والاقتصادي كما أقامت علاقات علمية وثقافية مع أكثر من
ثلاثمائة منظمة حكومية أو غير حكومية في القارات جميعاً .

نعود إلى بوخارست ، وفي خاطري أن بلاداً حباها الله بالطبيعة الخلابة
جديرة بأن يعيش أهلها سعداء إذا ساروا على سنة العدل في توزيع الدخل
القومي حسب العمل وما يقدمه كل منهم لبلده خالصاً لوجه الله .

وبعد يومين تطوى بالطائرة أجواز الفضاء في نحو ثلاث ساعات من بوخارست
إلى القاهرة . . وما أقرب ما بين الشعب .

(١) الأهرام في ٢٣ / ٨ / ١٩٧٤

ويعتبر يوم ٢٣ أغسطس عيداً قومياً في رومانيا تعطّل فيه الأعمال
الحكومية .

المقالة السادسة

ليك حيجا

بين يدي الحج :

كانت لفظة كريمة أن يعطى السيد مدير عام الجمارك (١) توجيهاته بأن يتدب
لأمورية الحج زملاء لم يتدبروا الأعوام الماضية.

وتوجيه المذير العام نج من سياسة الدولة في عهد مبارك إن شاء الله ، فقد
كشفتنا جولة الحرب والسلام مع اسرائيل أو كدنا لكسبها تماما ، ولم يبق إلا
أن تستريح النفوس وتعمل في طهارتة لا تتكالب على مغنم رخيص تتكالب
القطط الجائعة على أشواك السمك :

والغريب أن ظلنا ننادى بتكافؤ الفرص مبدأ من مبادئ الاشتراكية
ولكن الرأي العام الجرمي لم يستطع أن ينادى بتكافؤ الفرص في بعثات الحج
أو نادى ولم يجله نداؤه شيئا .

وقد ظل الحج بالقرعة ، وتحاول أناس كانت الحظية التجارية مهم الأكر
يبيعون ويشتررون فظهر الحج العادي والحج السياحي بهكاليف أكثر ، والحج
بدعوة بلا تحويل عملة مصرية إلى سعودي إلى أن ألغيت القرعة هذا العام
(١٩٦٥م) واستعدت شركة الطيران المصرية لتدافع الناس كما يمدافون ليل
ساعة بالبطاقة العموية فإذا الأمر على غير ما توقع واستعدت فقد اطمأن الناس

(١) رقي وكيل وزارة المالية لشئون الجمارك بعد عودته من الحج .

أوزادوا إيماناً بأن الأمر بيد الله من قبل ومن بعد إن شاء كتب لهم حجراً مبروراً » وجاهدوا في الله حق جهاده، هو أجمل لكم وما جعل عليكم في الدين من حرج » (١)

ومنذ أن دوت اسمي فيمن يريدون الحج أحسست أني في الحج فعلا فمسئولية الحاج أن يحفظ لقب « الحاج » عظيماً لا يشتر سخرية بين ضفاف الدين حين يرون من أدى الفريضة لا يعرف منها غير شكلها .. إنها مسئولية جهاد النفس .

وحين يكثُر الحاج في مصالحة حكومية كالجمارك تكون هذه الكثرة مؤشراً إلى صلاح بدأت تعرفه — أو هكذا المفروض — بعد أن انتهت أعلام الكتاب في الشهور الأخيرة طعنا في ضماير الجركيين عامة .

وحين يكون الحجاج من الشباب فإن هذه الظاهرة تكون مبعث شعاعها وغبطتها بعد أن استقر في الأذهان أن الحج لكبار السن بعد أن يعبوا من لذائذ الدنيا عاباً .

واقدر تعودت أن يكون المصحف الشريف قريباً مني في حجرة نومي لكيلا يتخذ مني جوراً أنصفحه، وقد أكتفى بآية كيفما أتفق فإذا هي بشير أو نذير يكون له أكبر الأثر في النفس أبدأ بها يومئذ أو أنهيه أو أتوسطه .

وقد فعلت كما تعودت ، وأنا أعد حقايبى للسفر ، استغفر الله . جقيقى للسفر فليست ميالا لكثرة الحقايب فاني أحب أن أخفف في هذه المناسبة

خاصة . فإذا ضفحة المصحف على سورة الحج أقرؤها كاملة (١) ، إنها تبدأ
بوعظ للناس كافة بقوى الله « إن زلزلة الساعة شئ عظيم » .

إن خروج الجميع جماعات جماعات يذكرون هذا اليوم ، ويذكرون بالبعث الذي
تفأولعه آيات من بعده .

وتنتهى السورة بأسر تستقيم عالمه الجماعات هو « فأقيموا الصلاة ، وآتوا
الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير » . . فكان « النصير »
في آخر السورة هو المطلب الذي يريد الناس في زلزلة الساعة كما تحدثت
السورة في أولها .

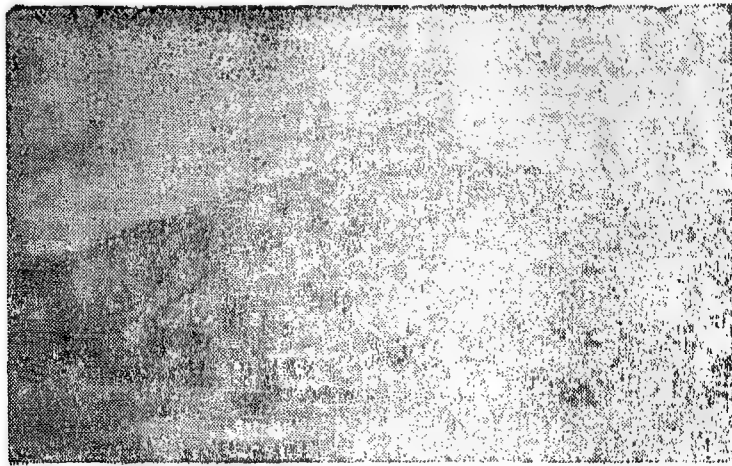
* * *

في يوم التروية : توجه إلى مطار القاهرة فأفضى إلى بعض صحبى بهوى النقش
إلى الكعبة فيشاركنى هذا الشعور فأثلا إنها دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام :
« ربنا إني أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا
ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات
لفظهم يشكرون (٢)

(١) ونحن لا نفتح المصحف لتتبادل تقاؤل العامة بالمصحف وآيات مما
يعيد إلى الذهن عادة من عادات الجاهلية الأولى مع أن الإسلام طمس هذه العقيدة
العاطفية السخيفة إلى غير رجعة وإنما هو هدى للمتقين .

(٢) إبراهيم ٣٧

ونحرم ثم تحاق للطائرة إلى جدة والشوق يدفعنا إلى مكة لنطوف طواف القدوم والسعي ، لم يبق إلا نهارنا الذي نخن فيه ، ففدا وقفة عرفات (١) ، ذلك الوادي الفسيح الذي يبعد عن مكة نحو ٢٥ كم ، ويتسع لأكثر من مليون ونصف حاج هم عدد زوار بيت الله هذا الموسم فمساحته نحو أحد عشر كم مربعا .



إلى جبل عرفات

في عرفات :

لقد كنا في عجلة من الأمر نسيت معها أن أشتري غطاء الصحف به ، ولا يخلو

(١) وافق الخميس الحادي عشر من ديسمبر ١٩٧٥ ويسمى اليوم الثامن من ذي الحجة يوم « التروية » ولعل تسميته بهذا الاسم ترجع إلى أن الناس كانوا يأخذون فيه الماء من ذي الحجاز ليرووا عنه يعرفه والمزدلفة حيث لم يكن يوجد ماء فيها ، وإذا وافق يوم عرفه يوم الجمعة فلا جمعة في هذا اليوم .

الجو من برودة . ولكن قوى النفس أمضى من الجو الخارجى إذا صدق العزم . ونهت ليلة الوقفة في مسجد عمرة ، والله الصباح نزعته إلى جبل الرحمة نصحني إليه على قدر الطاقة واكتفى بالمعجزات الكبار أسفل الجبل بينما ظل بعض الرفاق لا يصعدون ، فعرفت كلها موقف . دامين بما نشاء نبتل إلى الله ملين : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والفضل لك والملك ، لا شريك لك »

إنها كلمات التلبية التي لم تشاركها منذ فادنا القاهرة ، تحمل الوحدة والحمد على نعمة الإسلام وهي أكبر النعم ، ولقدرة الله على كل شيء .

إن رد الملائكة على الصالحين « لبيك وسعديك » أما غيرهم الذين قاموا إلى الحج بأماله الحرام فعرد الملائكة على كل منهم « لا لبيك ولا سعديك » لابد أن يعرف الناس هذا ليقول عدد الركب إلى البيت الحرام ، فيأخذ الصالحون مكانهم إليه .

إلى مزدلفة :

يجمع في عرفة بين صلاتي الظهر والعصر جمع تقديم وقصر حتى إذا ما غربت شمس العاصم من ذى الحجة لا ينتظر الحاج صلاة المغرب ، فالسنة أن يصليها بمزدلفة مع العشاء جمع تأخير بأذان واحد وإقامتين ، أفواج تأخذ الطريق على الأقدام ، فالمسافة بين عرفة ومزدلفة نحو اثني عشر كيلو متراً بينما تركب أفواج أخرى السيارات ، لاحداث حيث ~~صحت~~ من الحوادث يظن أن يقع في هذا الزحام الملاحم ، إلا إذا استثنينا القليل أن تفرز سيارة في رمال جهنت إليها .

وفي مزدلفة نقرش الأرض فلا بد أن نقيم فيها شيئاً من النصف الثاني من الليل وإلا كان علينا ذبح فدية ، نجتمع الجمرات تسعاً وأربعين ، ونزيد عليها ما نحتاج له خشية فقد بضمها وأعم أن أنظفها مما علق بها من طين فأتذكر أنها لرمي إبليس فأبقى عليها مادامت لا تحمل نجاسة (١) .

ونصلي الفجر في مزدلفة ثم نقف بالمشرع الحرام ، وهو تل صغير آخر مزدلفة يسمى قزح ، ندعو الله عملاً بالآية الكريمة « فإذا أفظم من عرفات فاذكروا الله عند المشرع الحرام » (٢) .

في يوم التبحر :

وقيل أن تطلع شمس العيد تنقل بالسيارات إلى منى - بكسر الميم ، ويعلقها العامة بالضم كأنها عندهم جمع منية - ويسلك السائق بطن محسر - بكسر السين وتشديدها - ، وهو الحد الفاصل بين مزدلفة ومنى ، وعمل هلاك أصحاب القيل ، ونطلب إلى السائق أن يصل بنا إلى السيل المصري حيث يقيم الحجاج المصريون ولكنه يعتذر بأن حريقاً شب قريباً منه .. لقد كنا رأينا آثار الدخان في الطريق فظننا أن الأمر يسير ولكنه كان أبعد مما نتصور فقد انفجرت أنابيب البوتاجاز في الخيام المنصوبة فأنت على من شاء الله ، وما شاء الله من أمتعة الناس وسياراتهم . والله في خلقه شئو ، فنقتنع بأن نقرش الأرض

(١) إذا رمى حاج بمقتحس أجزأه وندب أن يعيد بظاهره .

(٢) البقرة ١٩٨

كما افترشناها الليلة السابقة ، ونصلي الظهر فالعصر بمسجد الخيف متى تم نأتى إلى جرة العقبة نرمى فيها سبع حمرات مكوه بن مع كل حصاة : (١) .

وقد أحس بسداد الرمية عند كل حصاة فأنا ألقى بها عدوا بينما يمثل لنا في هذا الموضع : إنه الشيطان الذى نصفه غالباً بالرجيم ، نرجمه فنحس الراحة بحق ، أنظر إلى الناس فى حماسهم فأحس هذا الشعور فيهم ، ولو اسب الإنسان إلى نفسه - دون الشيطان - كل خطأ أو خطيئة لهلكت نفسه ندما وحسرة ، لا بد أن ياسب الشر إلى شيء خارج النفس يوعز إلى النفس ويغريها .. إنه الشيطان .

يحاق الحاج الشعر أو يقصره قائلاً : اللهم هذه ناهيتى يترك : والتحليق أفضل فهو من أباغ أنواع العبودية ، ولهذا كانت العرب إذا أرادت إذلال الأسير منهم وعقده حلقوا رأسه وأطالوه (٢) ، وقد عد الشافعية حلق الشعر أو تقصيره ركناً من أركان الحج لا يتم إلا به (٣) .

وفي اليوم العاشر نرى الجمرات الثلاث مبتدئين بالجرة الدنيا - وهي التي على مسجد الخيف ثم الوسطى ثم العتبية .. كل جرة سبع حصيات مع « بسم الله والله أكبر » مع الدعاء بعد الرمي ، الأول والثاني .

ها هو رجل استخف نفسه واستظرف مع رفاقه المضربين يرمى للسبعة مرة واحدة لماذا السجدة يا هذا والواجب أن ترمى الحصيات متتابعة؟ وددت

(١) والأصل أن ترمى الجرة قبل الزوال .

(٢) الطب النبوى ص ١٢٥ . ابن القيم .

(٣) الأركان الأربعة قبله الإحرام ، طواف الإفاضة ، السعى بين الصفا والمروة ، الوقوف بعرفة .. الفقه على المذاهب الأربعة ص ٣٥٥ .

أن أنصحه أنه لو رمى أكثر من واحدة في مرة واحدة حسب ذلك واحدة^(١) ولكن ألجئني حقه ، ولعل أخطأت في عدم إسداء النصح .

كما نهى رسول الله ﷺ - أن تكون الحصاة كبيرة فلا مقالة في الدين .

وقد كنا نسمع من يرى بالنعال وإن لم نر هذا المنظر وهو ما يجعلنا نشير

إلى أن الرمي الواجب بشيء من جنس الأرض^(٢)

بقيت معنا إحدى وعشرون حصاة ترمى بها الجمرات الثلاث: الدنيا والوسطى والعقبة على الترتيب فإن عكس حاج هذا الترتيب سن له إعادة الرمي^(٣) ، فنظل بعد منتصف الليل نرمىها كما فعلنا في اليوم السابق ، وقد تعجل الرفاق إلى مكة كما يقول الله « فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه »^(٤) ولكني أحببت منى وزادني شوقا إلى البقاء فيها خشية ألا نعود إليها ، والحج فرض مرة واحدة برغم ما هي في حاجة إليه من زيادة دورات المياه مثلا وإنشاء المنازل المريحة لأفواج الحجاج وهذا لو تضافرت جهود الحكومات للهوض بالمرافق العامة جميعا ، وقد بذلت الحكومة السعودية جهدا هذا العام بأقامة جسر يتمكن الناس به من رمي الجمرات في يسر ، وأزالت المباني التي كانت قريبا من الجمرات فأنسعت الطريق للقادمين .



(١) الفقه على المذاهب الأربعة ص ٣٧٣ - ط . الشعب ٥١٣٨٠ - القاهرة

(٢) المرجع السالف ٣٧٤

(٤) البقرة ٢٠٣

مكة والتوحيد : نذهب إلى مكة لتعارف البيت المعمور طواف الإفاضة ، وإذا
الرفاق يتعجلون أيضاً الذهاب إلى المدينة المنورة فيظهر صوت إن المال معنا
قليل ، ولهذا لم نسق هديا ، وأدينا الحج بنية الأفراد ، والصلاة في المسجد
الحرام أضعاف أضعاف الصلاة في المسجد النبوي ذلك إلى أن الركعة في
المسجد الحرام تعدل مائة ركعة في المسجد النبوي كما أن زيارة المدينة المنورة
ليست من مناسك الحج وقد سبق زيارتها ، ونأمل أن نزورها في قابل أيامنا
فيقتنع بعض الرفاق بهذا المنطق بينما غد بعضهم المسير إلى المدينة المنورة شوقا
إلى : مناجاة الحبيب المصطفى — ﷺ — برغم تكاليف الانتقال وفي الذهن
حديث شريف « ما بين بيتي ومبري روضة من رياض الجنة » ربيته هو
مدفنه — ﷺ — والشئ المؤكد أن الرسول — ﷺ — رأى في
هذه البقعة التي حددها من راحة النفس ما وصفه بأنه جنة أو روضة منها ،
فهل هي روضة لكل زائر وكل مهمل في هذه البقعة ؟ (١) إن الأساس هو قلب

(١) يقول الأستاذ محمد حامد النقي إن حديث « ما بين بيتي ومبري .. » واقعة حال
يصف فيه الرسول — ﷺ — ما جلا الله له في ذلك الوقت الذي قام يخطب
فيه يوم موت ابنه إبراهيم ، وصادف يوم كسوف الشمس ، فانتهر اليهود والنصارى
وأشاعوا أنما كسفت لموت إبراهيم ففضض ﷺ لربه أشد الغضب فجلا الله
فأراه الجنة في هذا الحين ما بين بيتي ومبري . ودعوى أنها بقيت كذلك روضة
من الجنة لا يقوم عليها دليل .

مدارج السالكين — ابن القيم ٢٤٩/٣ « حاشية » :

وهو استعناج للشيخ لانعرف دليلا بسنده ،

والواقع أن كل ما يقرب إلى الله يعتبر سبيلا إلى جنة الله

المؤمن الذي يقترب من قلب رسول الله ، فيستوعب كتاب الله وسنة رسول الله استيعاباً حسناً فيها وسلوكاً وقولاً .

وقد كنت ممن آثر البيت الحرام لأشبع من الطواف حوله ، تذكرت أستاذي ابن قيم الجوزية ووصف الواصفين له أنه حج مرات كثيرة وجاوز بمكة ، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف أمراً يتعجب منه .

كيف قفزت سيرته إلى ذهني على بعد نحو ستة قرون ونصف قرن من الزمان ؟ إنه قبس من السيرة المحمدية ، تستجلى النبوة في سلوكه . ومن هنا كانت قوته وإمامته على مر العصور ، وما أجل أن يكون الإنسان طامعاً بذا .

ومحور العبادة وأساسها شهادة التوحيد ، ظل رسول الله ﷺ — في مكة قبل هجرته إلى المدينة نحو ثلاثة عشر عاماً يعلمهم ألا إله إلا الله ، وتشاء إرادة العالم الحكيم أن تكون مكة أيضاً ملتقى الحجاج من جميع بقاع الأرض على مر الأزمان ليقروا بالتوحيد ، قبله واحدة ، يطوفون حول بيت الله لا اختلاف بينهم ، ثم يصلي الحاج عند مقام إبراهيم — عليه السلام — ركعتين يقرأ فيها بعد الفاتحة « قل يا أيها الكافرون » رافضاً عبادة الكافرين التي تخرج من التوحيد و « قل هو الله أحد » التي تؤكد وحدانية الله .

ومن مبدأ التوحيد تكون قوة الفرد ، وعظمة الأمم ، إذ لا أهواء يكون إلا إنسان عبداً لها ولا ملامح تنزع أفكاره وجهوده ، وإنما يسعى دائماً لله ،

يقول أحد طواغيت الاستعمار مستر سبوك : إن مكة المكرمة ليست مجرد مركز ديني ، ولكنها مركز سياسى أيضا للمسلمين ومنهم الإندونيسيون ، لذلك يجب على الساسة الهولنديين فى إندونيسيا مصاحبة رؤساء الإسلام إلى تلك المدينة المقدسة ليعرفوا مايجول فيها ، وما على التعليمات التى يتلقونها ^(١).

الدين وهوى النفس:

إنها تعليمات السماء يحسمها الفرد مسلما خاضعاً لله ، ولا جدال فى الحج ، ولا خصومة ، ولكن أولياء الشيطان يخيفهم الشيطان من المسلمين فى مكة ، والمسلمون أجدر أن يهابهم العدو بعد أداء فريضة الحج خاصة ، فهم الركن الذى يكتمل به بناء البيت الإسلامى . ولكن حال كثير من المسلمين أنهم يسعون إلى الحج ويشعاقون للعودة إليه استجابة لحظ النفس لا لحق الله كما حكى من بعض الصالحين قال : حبيب كذا وكذا حجة .. فبان له أن جميع ذلك كان مشوباً بحظي ، وذلك أن والدني سألتني أن أستقى لها جرعة ماء فنقل ذلك على نفسي ، فعلمت أن مطاوعة نفسي فى الحجبات كان يحظ نفسي وإرادتها إذ لو كانت نفسي فانية لم يصعب عليها ما هو حقيق فى شرع الله ^(٢) .

أرأيت المعيار الذى اتخذته هذا الرجل الصالح لقد استطاع الحج مرات على ما فيه من مشقة ولم يستطع ما هو أبسر بكثير لأن فى الأول هوى النفس

(١) إندونيسيا ص ٥٤ - محمود شاكر . دار العالمية - بيروت ط .

سنة ١٩٧١ .

(٢) مدارج السالكين ٢ / ٩٩ - ط . دار الكتاب العربى . بيروت هـ .

سنة ١٩٧٣ م .

دين الثانية وقد أمر الله بها جميعا . نسألك اللهم العافية ، ونستغفرك ونعوب
إليك .

نسقل الطائرة إلى القاهرة ، فنجسد في استقبالنا الأخ سكرتير نادي
الجمارك برفقة زميل آخر لتخرج أمتعتنا دون تفتيش جمركي ، لقد أحسن
الظن بحجاج بيت الله وأنذكر يوم أرادت مجموعة من رجال الجمارك السفر
لتأدية العمرة فإذا السيد وكيل الوزارة لشئون الجمارك يعطى تعليمات ه أنهم
سيخفضون عند العودة لإجراءات مشددة وسيُنظر في أمر المخالفين - إلى
جانب ما هو مقرر في القانون الجمركي - بالنقل من مصالحة الجمارك (١) .

لقد تغيرت النفوس بتغير سياسة الدولة ... وكفى المرء سعادة أن يوثق به
في أمر دينه ودنياه .

و بعد :

فهذه رحلات إلى خارج القطر خلال أربع سنوات من سنى الشباب مرتبة ترتيبا زمنيا حسب القيام بها ، رحلات سريعة من حيث الاحساس الشخصى ولكنى حين أمسكت القلم أدونها وجدت فى نفسى حاجة إلى الأناة والصبر حتى تأتى الكلمة معبرة بالدقة الممكنة عن المواقف التى مررت بها ، ذلك أن كل موقف يستدعى المقارنة بنظيره أو نقيضه فى حياتنا بمصر وهنا قد يجتاح الانسان شعور بالإعجاب أو الإحباط فيفقد للنظرة الموضوعية وقد جهدت ألا أفقد هذه النظرة وهو ما يمثل عندى سببا جوهريا فى إعادة الرحلة إلى بلاد زرتها من قبل .

غير أن كتابنا مع تكرار ما فيه من الرحلات قد يجد فيه القارىء من التنوع ما يشوق لانه صورة حياة فى بيئات مختلفة عربية وغربية ، اسلامية وغير اسلامية ، تجارية وزراعية وصناعية ، فى الصحراء وفى الموانىء .

والكتاب محاولة لتقصى الحقائق العالمية والتاريخية فى الموضوع الذى يتناوله مزودة بالخرائط والصور لكنى بهيش القارىء الرحلة بفكره وروحه وبصره بعض وقته .

فاذا قال قارىء من بعد لقد أغنانى الكتاب - متعة وفائدة - عن الرحلة بنفسى فهذا نجاح ، وإذا قال آخر : أريد التجربة بنفسى ... فهو النجاح الذى ننشده .

المراجع

(ثبت بعض المراجع، وثمة غيرها نكتفي بإيراده في موضعه من الكتاب)

١ - أسباب النزول .

جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (السيوطي)

ط التحرير بالقاهرة ١٣٨٢ هـ .

٢ - الطبقات الكبرى .

محمد بن سعد (كاتب الواقدي) ط التحرير بالقاهرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م

٣ - الأطلس العربي .

رسم وطبع بإدارة المساحة العسكرية بالقاهرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

٤ - الموطأ .

مالك بن أنس . ط الشعب ، القاهرة .

٥ - أوربا في مجرى التاريخ (دراسة جغرافية)

دكتور محمود جلال الدين الجمل . ط للنهضة المصرية بالقاهرة ١٩٦٩ م

٦ - الجامع الصحيح .

الإمام مسلم . ط التحرير بالقاهرة ١٣٨٣ هـ -

٧ - تفسير القرآن العظيم .

عماد الدين اسماعيل (ابن كثير) ط . الجلي القاهرة .

- ٨ - جغرافية أوروبا .
توفيق سابق ، محمد مرسى أبو الليل . ط كوستانسوماس . الظاهر ، القاهرة
- ٩ - جغرافية أوروبا الإقليمية .
دكتور جودة حسنين جودة . ط جامعة الاسكندرية ١٩٧٠ م
- ١٠ - رحلة ابن بطوطه « تحفة النظار »
ط التحرير ١٣٨٦ - ١٩٦٦ القاهرة .
- ١١ - رحلة ابن جبير
أبو الحسين محمد بن أحمد (بن جبير) ط التحرير - القاهرة .
- ١٢ - سفر السعادة .
أبو طاهر عبد الدين محمد بن يعقوب (القيروز بادي) .
ط صبيح ، القاهرة ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م
- ١٣ - السفر إلى لأوتنر .
أحمد زكي - ط . الاميرية - مصر ١٣١١ هـ - ١٨٩٤ م
- ١٤ - سيرة النبي
لأبي محمد عبد الملك (ابن هشام) ط التحرير بالقاهرة - ١٣٨٣ هـ .
- ١٥ - صحيح البخاري
لأبي عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم (البخاري) ط الشعب ١٣٧٨ هـ . القاهرة
- ١٦ - في منزل الوحي .
الدكتور محمد حسين هيكل . ط مصر ١٩٥٧ م

١٧- مجموعة الرسائل الكبرى

لإبن تيمية . ط صبيح ، القاهرة ١٩٦٦ م

١٧- مروج الذهب

أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (المسعودي)

ط التعرير القاهرة ١٣٨٦ هـ + ١٩٦٦ م

١٨- مكة المكرمة

مجمود الشرفاوى ط الاهرام ، القاهرة ١٩٧٢ م

* * *

تصويب

صفحة	سطر	
٤٢	٧	في حقيقة
٥٥	١٧	ويتهى للنظر كما تنتهى الحياة
٩٩	١٦	شريط حياة

إلى هنا — نعتذر للقارئ منها .

٦٢ — نهر الكلب — مغارة جعيتا (لبنان) .

(المقالة الرابعة) في مهبط الوحي

٦٦ — زى الطالبات (أنظر أيضا ص ١٠٣)

٦٧ — الابلاء وسكينة النفس .

٦٨ — بدر : الموقعة والمعاني التي تزخر بها .

٧٢ — مناجاة الرسول (ﷺ) .

٧٣ — أبو بكر وعمر بن الخطاب — أهل الصفة .

٧٤ — إعانة للفقراء — حمام الحرم .

٧٥ — أخوة المؤمنين .

٧٦ — صحف المدينة .

٨٤ — قبر حمزة وصاحبه .

٨٦ — مسجد الفصح — الغماية — آبار علي .

٨٧ — بكّة د أنظر أيضا ص ١٣٣ «

٩٥ — الصفا والمروة .

٩٧ — دلالات المسعى (تقدير الأئمة ، العمل الدائب ، الامتثال) .

(المقالة الخامسة) أيام في رومانيا

١٠٧ — سكان رومانيا د أنظر ص ١١٣ وما بعدها «

١٠٨ — المرأة في رومانيا .

١٠٩ — ما مايا .

١١٥ — كوستانتسا — دور العبادة (أنظر ص ١١٦ عن الشباب)

١١٧ — اللغة الرومانية .

- ١١٨ — بخارست (أنظر ص ١٢٣) .
١١٩ — في سيبى
١٢١ — في الكربات : سينايا ، بریدال ، بويانا ، براشوف .
(المقالة السادسة) لبيك حبيباً .
١٤٢ — في جمارك مصر (أنظر ص ٤٣ وما بعدها ، ص ١٣٥)
١٢٦ — في يوم التروية
١٢٧ — في عرفات
١٢٨ — إلى المزدلفة
١٢٩ — في يوم النحر (رمى الجمرات بمضى ص ١٣٠)
١٣٢ — مكة والتوحيد .
١٣٤ — الدين وهرى النفس .
١٣٦ — وبعد
١٣٧ — المراجع

* * *

هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالاسكندرية .

* * *



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
مكتبة الإسكندرية
Bibliotheca Alexandrina

- ١ - الأدب في حماسة أبي تمام (١٢٨٣ هـ - ١٩٦٤ م)
- ٢ - أساليب النفي في القرآن (١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م)
- ٣ - العمل في الإسلام (١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م)
- ٤ - العقاد والحرية (١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م)
- ٥ - يوسف في القرآن (١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م)
- ٦ - لقطات (١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م)
- ٧ - وفاء: من وحى حرب العاشر من رمضان (١٩٧٣ م)
- ٨ - نظرات في سورة النور (١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م)

تحت الطبع

- ٩ - مع سورة الكهف
- ١٠ - الرحمن والإنسان والجن
« تفسير للسور الثلاث »
- ١١ - صور من حياة
- ١٢ - حواء في كلمات وخواطر أخرى .
- ١٣ - العقاد . الرجل والقلم
- ١٤ - ابن القيم
- ١٥ - الإسلام والحق

